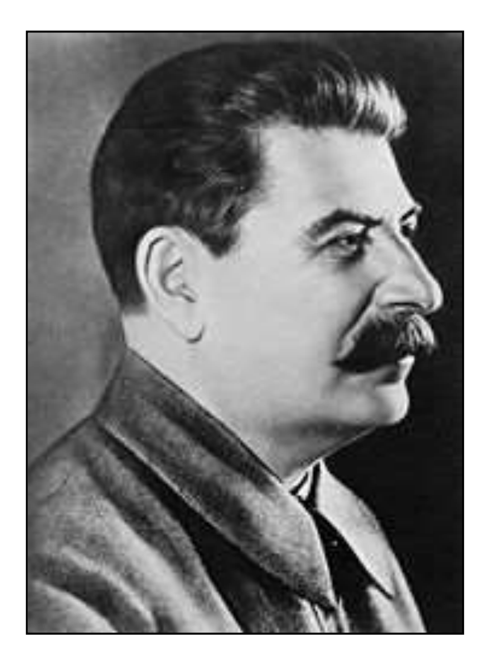
ستالين

التجربة الستالينية.. ويوتوبيا الشيوعية بين المطرقة والسندان !!



عصام عبد الفتاح



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : ستالين .. التجربة الستالينية ويوتوبيا الشيوعية بين المطرقة والسندان !!

المـــــــؤلف : عصام عبد الفتاح

رقــم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٠

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_٥@yahoo.com

المقدمة

كيف ومتى : تحولت روسيا خلال فترة قصيرة من بلد المحراث الخشبي.. إلى دولة عظمى تمتلك السلاح الذري والنووي؟..

كيف ومتى : تحولت من بلاد غارقة بالأمية والجهل والأمراض.. إلى دولة حضارية وصناعية متطورة.. لها نصف الكلمة السارية على العالم أجمع بعد الحرب العالمية الثانية؟..

السؤال على النحو السابق «خطأ»..

والصواب هو : من فعل بتلك البلاد كل هذا؟

والإجابة «الخطأ» أن نقول : كثيرون..

والإجابة الصحيحة.. والوحيدة أن نقول : إنه «ستالين»..

زعيم اتفقنا.. أم اختلفنا معه.. قبلناه.. أم رفضناه.. سيبقى أحد أهم كبار قادة.. ومفكري.. ومنظرى العمل السياسي في القرن العشرين.

على مستوى التنظير الفكري : لا شك أنه بمؤلفاته المتعددة كان مفكراً.. ومبدعاً.. ساهم في تطوير النظرية الماركسية ـ اللينينية.

على المستوى القيادى : هو أول قائد شيوعي في الحركة العمالية يقود أكبر حزب سياسي.. وإحدى الدولتين العظميين في العالم.

على المستوى الشخصي : كان ذا شخصية قوية النفوذ والتأثير على الصعيدين المحلي والعالمي.

إنه زعيم.. وقائد يجبر التاريخ على احترامه.. أخلص لوطنه ولم يبعه يوماً من الأيام.. ولم يخن مبادئه ساعة من الزمان.. وبفضل ما كان يتمتع به من فنون الإدارة والقيادة أصبح ستالين قائداً ثورياً للبرولتاريا.. استطاع السير بدفة الحزب والسلطة دوماً إلى بر التماسك.. واتصف بمواقفه الحاسمة حتى في أصعب الظروف حساسيةً.. واستطاع بالفعل أن يؤسس دولة عظمى سياسياً واقتصادياً وعسكرياً خلال فترة عصيبة جداً.

باختصار استطاع أن ينقل جانباً كبيراً من حلم «المدينة الفاضلة» من ثنايا التنظير.. إلى حيز التطبيق.. المدينة الفاضلة بمفهومه هو.. وليس بمفهوم أفلاطون في جمهوريته الأخلاقية.. مدينة آمن بأسسها النابعة من نظريات الشيوعية والماركسية.. وليست المستوحاة من كتابات الفلاسفة وتنظيراتهم.

لكن رغم كل هذا تبقى له أخطاؤه ومثالبه..

سلبياته.. وإيجابياته..

أخطاؤه وحسناته..

ولما لا.. أليس بشراً.. مثله مثل باقي البشر..

وما يهمنا نحن من الرجل هو الصحيح والصواب من أفعاله.. وأفكاره.. ما يهمنا هو التجربة التى من حقنا دينياً أن نرفض منها .. بل ومنه هو شخصياً ما نشاء.. ونقبل ما نشاء..

وبين هذا.. وذاك نتوقف لنقرأ برؤيتنا الخاصة حكاية هذا الرجل.. وقصة صعوده ببلاده من خانة الضعف والخنوع.. إلى المناصفة في صدارة المشهد السياسي لعالم القرن العشرين.. لتتقاسم مع الولايات المتحدة الأمريكية بطولة عرض سياسي خاص استمر عقوداً من الزمان اسمه ميزان القوى العظمى في عالم ما بعد الحرب الكونية الأولى والثانية؟

تعالوا نعرف أكثر على الرجل.. وحكايته من خلال الصفحات القادمة..

عصام عبد الفتاح

elbtrawy@yahoo.com

تمهيد

ونبدأ رحلتنا بتمهيد لازم لمعرفة الحيز الجغرافي لتطبيق التجربة.. وهو الوطن الذى عاش فيها ستالين.. والأجواء السياسية التى نشأ فيها.. ونلقي في البداية نظرة سريعة عن :

روسيا القيصرية

هو الاسم الرسمي للدولة الروسية خلال الفترة بين اتخاذ إيفان الرابع[1] للقب القيصر في ١٥٤٧ وحتى قيام بطرس الأكبر بإنشاء الإمبراطورية الروسية عام ١٧٢١.

ومنذ ذلك التاريخ.. وحتى قيام الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ كانت روسيا القيصرية.. تعتبر ثالث أكبر إمبراطورية في العالم على الإطلاق بعد كلٍ من الصـــين.. والإمبراطورية البريطانية التي كان يُطلق عليها وقتها «الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس».. وكانت حدود روسيا القيصرية في أقصى امتدادٍ لها كالتالي:

- في الشمال وصلت حدود الإمبراطورية إلى المحيط المتجمد الشمالي..
- وفي الشرق سهول سيبيريا وقازاخزستان.. التي كان كل منها يفصل بين جبال الأورال ونهر الأورال وبحر قزوين..
- والحدود الجنوبية وصـــلت إلى البحر الأســـود والقوقاز.. وانفصـــلت عن هذه الأخيرة بنهر مانيش.. الذي كان يصـل بحر آزوف بمنطقة بحر قزوين في العصـور السـابقة على العصـر الحديث القريب.
- الحدود الغربية امتدت من شـــبه جزيرة كولا نحو فارانجير فيورد وصـــولاً إلى خليج بوثنيا.. ومن هناك إلى بحيرة قورش في جنوب بحر البلطيق.. ومن ثم إلى مصـــب نهر الدانوب.. حيث تلتف لتطوّق بولندا وتفصل بين روسيا وبروسيا وغاليسيا النمساوية ورومانيا.

ووصـــل عدد ســـكان هذه الإمبراطورية في وقتٍ من الأوقات إلى ما يزيد عن ١٧٦ مليون مواطن متناثرين في هذا الامتداد الواسع.. وكانوا يُشكلون ثالث أكبر تجمع بشري في العالم في ذلك الوقت.

١(يعتبر بيتر العظيم أو بطرس الأكبر) أو بيتر الأول وهو ابن القيصـر هو أحد أعظم من حكموا روسـيا على مدار تاريخها.. ولد في الكرملين عام ١٦٧٢ وحكم من عام ١٦٨٢خلفا روســيا إليكس الأول وزوجته الثانية ناتاليا كيريلوف نيرشــكينا.. وحتى وفاته عام ١٧٢٥تنقسـم فترة حكمه إلى جزأين.. الأولى حتى ١٦٩٦وكان يحكم فيها مشـاركاً لأخيه لفيودر الثالث وإيفان الخامس غير الشقيق لأن الأخير كان مريضـاً في الحكم.في التي حولت روسيا القيصرية . قاد سياسة التحديث والتوسع إلى إمبراطورية.. على مستوى لتصبح إحدى أهم القوى وتحولها وهو مؤسس مدينة سانت بطرسبرج أوروبا.. والتي مثلت أجرى عدة إصـــلاحات في الإدارة والمالية والصـــناعة كما عاصـــمة لروســـيا على مدى أكثر من قرنين من تاريخها.. والمجتمع.. وأسس جيشاً حديثاً وبنى أسطولاً بحرياً عظيماً لروسيا.. وأراد تغيير أذواق الروس.. وتعريفهم بالتراث الثقافي وثقافياً.. ورعى مهمة إرســال الطلبة الروس إلى الجامعات الأوروبي.. وكان هدفه جعل روســيا دولة أوروبية ســياســياً الأوروبية للدراسة.. وتميزت سنوات حكمه الأخيرة بالعمل على تحقيق مزيد من الإصلاحات في روسيا.. وفي سنة١٧٢١ حقق لنفسه لقب «إمبراطور كل روسيا».. و في سنة١٧٢١ أنشأ المجمع المقدس ورشح للمجلس ١٠ من رجال الدين.

التفاوت الطبقي

إلا أن التفاوت في أوضاع مواطني الإمبراطورية الروسية اقتصادياً.. وعِرقياً.. وعقائدياً كان بارزًا بشــكل كبير.. فقد كانت الحكومة وعلى رأســها الإمبراطور واحدة من الملكيات المطلقة الأخيرة في أوروبا.. حتى أنها كانت قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى في شــهر أغســطس من سـنة ١٩١٤تعتُبر واحدة من القوى العظمى الخمس في القارة الأوروبية.

ويعتبر الإمبراطور بطرس الأكبر هو المؤسس الفعلي للإمبراطورية الروسية.. التي أُعلِنَ رسميًا عن قيامها ســنة ١٧٢١ وقد حكم بطرس الأول البلاد بين عامي (١٦٧٢-١٧٢٥) حكماً فردياً مطلقاً.. وأصبحت روسيا أكبر دولة في العالم في عهده.. بعد أن ابتدأت بدايةً متواضعة في القرن الرابع عشر كإمارة موســكو.. وكانت الإمبراطورية موزعة من أوراسـيا في بحر البلطيق إلى المحيط الهادي.. ثم أخذت بالتوسع منذ أوائل القرن السابع عشر.. وبلغت أقصى حدودها في الفترة التي استوطن الروس فيها سيبيريا[٢] لأول مرة خلال منتصف القرن السابع عشر.. وبعد استرداد مدينة كييف من بولندا.. وإخماد فتنة قبائل سيبيريا.

وعلى الرغم من كل هذا التوسّع.. فإن هذه الأراضي الشاسعة.. لم يتجاوز عدد سكانها في بداياتها آنذاك أكثر من ١٤ مليون نسمة.. وكان جميع السكان تقريباً يعملون في المزارع باستثناء جزء صغير منهم عاشوا في المدن.

وانبهر بطرس بشدة بالتقنيات المتقدمة.. وفنون الحرب.. والحنكة السياسية لدى الغرب.. ومن هنا لعب دوراً رئيســياً في تحول بلاده إلى نظام الدول الأوروبية.. فأقدم على دراســة التكتيكات الحديثة.. وكيفية إقامة التحصينات.. وبنى جيشاً قوياً قوامه ٣٠٠ ألف مقاتل كانوا يجندون مدى الحياة.

كما خلع بطرس الأكبر على نفسه لقب إمبراطور إلى جانب لقبه الرسمي كقيصر احتفالاً بغزواته وفتوحاته العديدة.. وأصبح إمبراطورًا رسمياً للإمبراطورية الروسية في أواخر عام ١٧٢١.

توسعات بطرس

وفي سـبيل توسـيع رقعة وسـيطرة بلاده وجّه بطرس أولى نيرانه على العثمانيين.. ثم حوّل انتباهه إلى الشمال.. حيث كان ما يزال يفتقر إلى ميناء آمن في تلك الأنحاء من دولته.. باستثناء ميناء أرخانج يلسك على البحر الأبيض.. الذي يتجمد لمدة تسعة أشهر في السنة مما يجعله غير مناسب ليكون مرفئًا عسكريًا.. وكان الامتداد الروسي إلى بحر البلطيق مغلقاً من قِبل السويد.. التي تحيط أراضيها بالبحر سالف الذكر من ثلاث جهات.

---

(٢) سيبيريا تقع بين الجزء الشرقي والشمال الشرقي من روسيا.. وهي أكبر صحراء جليدية في العالم.. تمتد شرقاً من جبال الأورال حتي المحيط الهادي غرباً.. ومن المحيط المتجمد الشـمالي حتي حدود كازخسـتان ومنغوليا والصـين جنوباً.. وتمثل ٧٧% من مساحة روسيا (١٣,١ مليون كيلومتر مربع) ولكن عدد سكانها لا يمثلون سوى ٢٧% فقط من تعداد سكان روسيا.. وقد ظلت لعدة قرون منطقةً غير مستكشفة وغير مأهولة إلا من الحملات الاستكشافية والسجناء المنفيين من روسيا الغربية والأقاليم التابعة لها.. ولكن بعد إنشـاء خط السكة الحديد الذي ربط موسكو مع سيبيريا في عهد القيصر نيكولاس الثاني (١٩١٦م) واكتشـاف الثروات الطبيعية انتشرت بها المدن الصناعية.. وازداد عدد السكان بها.. وفي البداية كانت مأهولة بمجموعات مختلفة من البدو ذوي الأصول التركية مثل الهان والأويجور.. وفي القرن الثالث عشر تعرضت للغزو المغولي.. وفي القرن السادس عشر مع نمو القوة الروسية واتجاهها للشرق بدأ التجار وجنود الكوساكس بدخول سيبيريا.. ثم قام الجيش الروسي بإقامة القلاع.. والمدن كـــ «توبولسك» التي أصبحت فيما بعد عاصمة سيبيريا.. في منتصف القرن السابع عشر وصلت السيطرة الروسية إلى المحيط الهادي.. ويعتبر الإســلام الذى عرف طريقه إلى هناك بعد ٧٥ عاماً فقط من الهجرة هو أول دين ســماوي يعتنقه الأهالى في سيبيريا.

ولشدّة رغبة بطرس بالحصول لبلاده على نافذة «إلى البحر» قام سنة ١٦٩٩ بإنشاء تحالف سري مع الكومنولث البولندي اللتواني ضـــد الســـويد والدنمارك.. مما أدى إلى نشـــوب الحرب الشـــمالية العظمى.. وانتهت الحرب سنة ١٧٢١ عندما استنفذت قوى السويد وآثرت السلام مع روسيا.. وكان من نتائج الحرب أن اكتســـب بطرس أربع محافظات تقع جنوب وشـــرق خليج فنلندا.. وبالتالي أمن وصـــوله إلى البحر.. وهناك قام ببناء العاصـــمة الروســـية الجديدة.. ســـانت بطرســـبرج.. لتحل محل موسكو.. التي طالما كانت المركز الثقافي في روسيا.

تنظيماته الداخلية

كما قلنا أعاد بطرس تنظيم حكومته وفقًا لأحدث الأنظمة الغربية.. وحول روســـيا إلى دولة استبدادية.. فجعل مكان مجلس النبلاء القديم مجلس شيوخ بتسعة أعضاء.. كان في الواقع مجلسًا أعلى للدولة.. كما تم تقسيم الريف إلى مقاطعات ومناطق جديدة.. وحصـر بطرس مهمة مجلس الشـيوخ في جمع العائدات الضريبية.. فكان نتيجة ذلك أن تضاعفت عائدات الضرائب ثلاث مرات طيلة عهده.

ثم دمج الكنيســـة الأرثوذكســـية جزئيًا في الهيكل الإداري للدولة.. وذلك كجزء من عملية إصـــلاح الحكومة.. الأمر الذي جعلها أداةً للدولة.. وفي خطوة مشـابهة أقدم على إلغاء البطريركية.. واسـتعاض عنها بهيئة جماعية يُطلق عليها اسـم «المجمع المقدس».. على رأسـها مسـؤول حكومي.. وفي الوقت نفســه.. قام بالقضــاء على ما تبقى من أنظمة الحكم الذاتي المحلية.. واسـتمر بالتركيز على العمل بمبدأ خدمة الدولة من قبل جميع النبلاء.

وبعدها توفي بطرس الأكبر ســـنة ١٧٢٥ تاركًا وراءه خلافاً حول من ســـيخلفه في حكم البلاد التى كانت قد بدأت مرحلة من عدم الاستقرار.. وأصبحت شبه مستنفذة الموارد.

وقد أثار حكم بطرس الأكبر تساؤلاتٍ عديدة.. أهمها السؤال الذى يطرحه معظم المؤرخين :

- هل كان هو السبب في سوء علاقة روسيا بالغرب.. وحالة التخلف الاقتصـادي.. والاجتماعي التى عاشتها في عهده وبعده.. بسبب ديكتاتوريته وتوجهه الغربي أم أن ذلك مرده لأسباب أخرى..
- ثم ما هى مدى ملاءمة إصـــلاحاته الداخلية التي كان معظمها ســياســيًا وجدواها في إصـــلاح أحوال البلاد داخلياً..
- وغيرها من المشاكل الأساسية التي واجهت العديد من حكام روسيا الذين جاءوا من بعده..

إلا أنه على الرغم من ذلك.. يتفق المؤرخون على أن هذا القيصر هو من أرسى أسس الدولة الحديثة في روسيا.

الإمبراطورة كاترين الثانية الكبيرة.

وبعد وفاة بطرس الأكبر.. وعلى مدار ما يُقارب أربعين ســـنة لم يحكم روســـيا حاكمٌ واحد متميز.. حتى جاءت الإمبراطورة كاترين الثانية الكبيرة.. الألمانية الأصـــل.. والتي تزوجت بالقيصـــر بطرس الثالث.. لتغيّر هذا الواقع.. فســـاهمت في إعادة إحياء طبقة النبلاء.. التي كانت قد بدأت بالظهور مجدداً بشـــكل بســـيط فور وفاة بطرس الأكبر.. وقامت بإلغاء مبدأ خدمة الدولة المفروضـــة على كل نبيل.. فاكتسبت شـعبية كبيرة في وسـطهم.. خصـوصًـا بعد أن أقدمت على إسـناد معظم المهام الحكومية في المحافظات إليهم.

وقامت كاترين الكبيرة بتوسيع التدخل الروسي في شؤون الكومنولث البولندي اللتواني بإجراءات عديدة كان من ضمنها دعم كونفدرالية تارجو ويكا.. إلا أن التكاليف الباهظة لهذا التدخل.. جرّاء تجهيز الحملات والجنود واستمالة البولنديين.. إلى جانب النظام القمعي الاجتماعي.. الذي كان يفرض على الأقنان قضاء حياتهم في أراضي الملاك.. دفع بالفلاحين الروس أن ينتفضوا ويثوروا على إمبراطورتهم في سنة ١٧٧٣ خصوصًا بعد أن أصدرت الأخيرة مرسومًا ينص على بيع الأقنان منفصلين عن الأرض.

الموت لجميع الملاك

وهدد المتمردون بزعامة واحدٍ منهم كان يدعى (غاشيف) بالاستيلاء على موسكو.. مرددين صرخة «الموت لجميع الملاك» .. وتمكنت الحكومة من قمعهم بلا رحمة.. وتم إلقاء القبض على قائد الانتفاضة.. وحمله إلى الساحة الحمراء حيث قُطع رأسه.. إلا أن شبح تلك الانتفاضة استمر يؤرق نوم كاترين وخلفاءها لسنين طويلة.

وفي الفترة التي قامت فيها الإمبراطورة بقمع الفلاحين الروس.. كانت تخوض حربًا ناجحة ضد الدولة العثمانية نجم عنها توسع روسيا في الحدود الجنوبية لمنطقة البحر الأسود.. ثم أقدمت على التآمر مع حكام النمسا وبروسيا.. للاستيلاء على أراضي الكومنولث البولندي اللتواني عندما كانت بولندا تُقسّم على يد الأمم الأوروبية.. فدفعت بذلك الحدود الروسية غربًا إلى أوروبا الوسطى.

وهكذا برزت روسيا وأصبحت قوة عظمى في أوروبا وقت وفاة كاترين الكبيرة عام ١٧٩٦ واستمر الأمر على هذا المنوال في عهد القيصر ألكسندر الأول.. الذي انتزع فنلندا من مملكة السويد الضعيفة في سنة ١٨٠٩ وإقليم بيسارابيا من العثمانيين في عام ١٨١٢.

غلطة نابليون.. وألكسندر «منقذ أوروبا»..

ثم جاء نابليون بونابرت بأحلامه التوسعية في أوربا والعالم ليقوم بأكبر أخطاءه عندما شن هجوماً على أرض القياصرة في سنة ١٨١٢ بعد خلاف مع القيصر ألكسندر.. وكانت حملته عبارة عن كارثة كبيرة لحقت بالجيش الفرنسي.. وكانت خطوة مهمة عجّلت من انهيار الإمبراطورية الفرنسية.. وذلك بالرغم من أن جيش نابليون نجح في الوصول إلى موسكو.. إلا أن الروس اعتمدوا استراتيجية الأرض المحروقة.. التي منعت الغزاة من السيطرة على البلاد.. وضمها إلى إمبراطوريتهم.. أضف إلى ذلك.. طقس روسيا شديد البرودة.. وحروب العصابات والفلاحين الثائرين كل ذلك تمكن من جيش نابليون.. وقُتِلَ.. وأُسِرَ آلاف الجنود الفرنسيين.. بعد أن تراجعت قوات نابليون.. وطاردتها القوات الروسية وصولاً إلى وسط.. ثم غرب أوروبا.. وإلى أبواب باريس نفسها..

وبعد هزيمة نابليون على أيدي روسيا وحلفائها.. أصبح القيصر الروسي يعرف باسم ألكسندر «منقذ أوروبا».. وترأس جلسة إعادة رسم خريطة أوروبا في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥.

تراجع روسيا

على الرغم من أن الإمبراطورية الروسية لعبت دوراً قياديًا هامًا في سياسية القرن التالي.. بفعل هزيمة الإمبراطورية الفرنسية والقضاء على نابليون.. إلا أن الإبقاء على نظام الاستعباد حال دون أي تقدم اقتصادي ملحوظ.. وفي الفترة التي أخذت دول أوروبا الغربية تحقق خلالها نمواً اقتصاديًا مطرداً بفعل الثورة الصناعية التي كانت قد بدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.. أخذت روسيا تظهر تخلفًا وتراجعًا أكثر من أي وقت مضى.. الأمر الذي خلق لها مشاكل جديدة.. وهدد مركزها كقوة عظمى.

وكان وضع روسيا كقوة عظمى مموهاً نتيجة عدم كفاءة حكومتها.. وعزلتها عن الشعب.. والتخلف الاقتصادي.

القيصر نيقولا الأول

وفي٣ سبتمبر من سنة ١٨٢٦ توّج القيصر نيقولا الأول خلفًا لأخيه الأكبر ألكسندر الأول.. وافتتح عهد هذا القيصـــر بانتفاضـــة تكمن خلفيتها في الحروب النابليونية.. ذلك أنه عندما اتجهت الجيوش الروسـية.. بقيادة عدد من الضـباط المثقفين.. إلى أوروبا أثناء الحملات العسـكرية على الإمبراطورية الفرنسية.. تأثر هؤلاء بالليبرالية السائدة في دول أوروبا الغربية.. فأخذوا يسعون إلى التغيير وتطبيق هذه المبادئ في حكم بلادهم ذات التوجه الأوتوقراطي.

ثورة دجنبر.. وعصرنة روسيا

وكانت النتيجة قيام ثورة دجنبر في شهر ديسمبر من سنة ١٨٢٥ وقامت بها مجموعة صغيرة من النبلاء الليبراليين.. وضـــباط الجيش الذين كانوا يريدون تثبيت شـــقيق نيقولا كملك دســـتوري.. إلا أن التمرد سُحق بسـهولة.. وأدّت هذه الثورة إلى تغيير نظرة نيقولا ببرنامج عصـــرنة روســـيا الذي بدأه بطرس الأكبر.. فقام بصرف النظر عنه فأعاد إحياء أيديولوجية الأرثوذكسية والأوتوقراطية والوطنية.

ثم احتلت الجيوش الروسية جورجيا في سنة ١٨٠٢ ..

واشتبكت مع بلاد فارس من أجل السيطرة على أذربيجان..

ودخلت في حرب القوقاز ضد الجبليين على مدى نصف قرن..

وبجانب كل ذلك وجد القياصـــرة الروس أنفســـهم أيضًـــا مجبرين على التعامل مع انتفاضـــتين في أراضيهم المكتسبة حديثاً في الكومنولث البولندي واللتواني.. وهما:

- ثورة نوفمبر في سنة ١٨٣٠.
- وانتفاضة يناير في سنة ١٨٦٣.

القمع الثوري

وأُخضعت المدارس والجامعات لرقابة مشددة.. وفُرض على الطلاب كتب مدرسية رسمية من أجل قمع أي فكر ثوري قد ينشـأ بينهم.. كذلك تم زرع جواسـيس الشـرطة في كل مكان.. وكان أي شـخص يُتهم بالتخطيط لأي ثورة يُرســل إلى ســيبيريا.. وقد أُرســل مئات الآلاف من الناس خلال عهد نيقولا الأول إلى معسكرات مخصصة للأعمال الشاقة في تلك الأنحاء من روسيا.

وفي هذا العهد.. أدّى طموح روسيا إلى الظهور كقوة لا يُستهان بها في العالم إلى انقسام المفكرين والمحدثين إلى فئتين رئيسيتين:

- **الأولى :** فضلت تقليد أوروبا الغربية وانتهاج منهج دولها..
- **الثانية:** تبنت عكس هذا الرأي من خلال العودة لتقاليد الماضـــي كفترة النهضـــة العربية بين التيار السلفي والتيار العلماني.. وكان الاتجاه الأخير يتبناه السلافيليون(٣) الذين انتقدوا بشدة «الانحلال الغربي» .

(٣) كان السلافيليون من مؤيدي نظام الرق ومعارضي البيروقراطية.. ومن مناصري النظام الجماعي الروسي الذي كان سائداً في العصور الوسطى.. أو مجتمع القرية.. على فردانية الغرب.

كذلك.. وُضـعت مذاهب اجتماعية بديلة من قبل المتطرفين الروس مثل ألكسـندر هيرزن وميخائيل باكونين وبيوتر كروبوتكين.

وقبل سنة واحدة من وفاة القيصر نيقولا الأول [٤] خاضت روسيا حربًا ضد تحالف دولي مكون من الإمبراطوريتين الفرنسية.. والبريطانية.. والدولة العثمانية.. ومملكة سردينيا.. ودوقية ناسو.. في شبه جزيرة القرم[٥] وعُرفت هذه الحرب بحرب القرم.. وكانت روســـيا وقتها لا زال العالم يعتبرها قوةً عســـكريةً عظمى لا تقهر.. وقد ســـادت هذه الفكرة في أوروبا منذ هزيمة نابليون الكبرى الأولى على أيدي الروس.. إلا أن تحالف القوى العظمى في أوروبا أثبت أنه أشـــد بأسًـــا وقوّة.. وكشـــف مدى اضمحلال وضعف حكم القيصر نيقولا الأول.. بعدما تبين درجة عجز وضعف القوات البرية والبحرية للإمبراطورية.

ألكسندر الثاني

وبعد نيقولا الأول تولّى ألكســـندر الثاني عرش الإمبراطورية ســـنة ١٨٥٥ وفي تلك الفترة كانت رغبة الشعب والسياسيين في الإصلاح الشامل لا تعلو عليها رغبة.. فظهرت حركة إنسانية أخذت بالتنامي شيئًا فشيئًا.. وهاجمت الاسترقاق ودعت إلى إلغائه.. وقد تم تشبيه هذه الحركة في السنوات اللاحقة.. بحركة دعاة إلغاء العبودية في الولايات المتحدة قبل نشوب الحرب الأهلية الأمريكية.. وحتى عام ١٨٥٩ كان هناك أكثر من ٢٣ مليون عبد يعيشـــون في ظل ظروف أســـوأ من تلك التي عاشـــها فلاحو أوروبا الغربية في القرن السادس عشر.

نشأة القنانة وإلغاء الرق

ظهرت القنانة[٦] في روسيا خلال القرن السادس عشر.. وكرّسها القانون في عام ١٦٤٩ ثم ألغيت في عام ١٨٦١ كإحدى خطى الإصلاحات الشـــاملة التي قام بها القيصـــر ألكســـندر الثالث. أدّت هذه الإصـــلاحات إلى تحرير الأقنان من ظروف معيشـــية كانت أقل ما يُقال عنها.. أنها رهيبة.. حتى عند عملهم تحت إمرة أفضـــل ملاّك الأراضـــي وأحســـنهم تعاملاً.. ومن هذه الناحية.. يمكن القول بأنه كان للإصلاحات أثر إيجابي بحق.

ثم حصل عبيد المنازل على حريتهم.. بموجب الإصلاحات.. دون أي تعويض ماديّ.. في حين حصل الأقنان على بيوتهم وبساتينهم.. ومخصصاتهم من الأراضي الصالحة للزراعة.. إلى جانب حريتهم.. كانت هذه المخصصات تُعطى للمجالس البلدية المحلية.. المعروفة باسم «المير».. التي كانت مسؤولة عن دفع ضرائب المخصصات.. وقد اضطر الفلاحون لدفع إيجار ثابت لقاء هذه المخصصات.. يتمثل بالمجهود الجسدي.. أي العمل حتى يتم سداد كافة ما يدينون به لأسيادهم السابقين.

---

(٤) توفيَّ بتاريخ ٢ مارس سنة ١٨٥٥.

(٥) تعنى كلمة القرم تعني باللغة التتارية (القلعة).. عُقد فيها مؤتمر يالطا بين قادة الحلفاء في الحرب= =العالمية الثانية في فبراير عام ١٩٤٥م ستالين وروزفلت وتشرشل.. وتتمتع شبه جزيرة القرم بموقع استراتيجي هام.. وهي حالياً جمهورية ذات حكم ذاتي تقع ضمن جمهورية أوكرانيا.. ويحيط بها البحر الأسود من الجنوب والغرب.. بينما يحدها من الشرق بحر أزوف.. ومســـاحتها ٢٧٠٠ كم ويشـــكل الروس حوالي ٥٠% منهم.. والأوكران ٣٠% والباقي من المســـلمين.. كانت عاصمتها فيما مضى مدينة «بخش سراي» عندما كانت خاضعة لحكم خانات التتار.. وفيها ثروات زراعية وطبيعية كثيرة أهمها: البترول.. والفحم الحجري.. والغاز الطبيعي.. والنحاس.. والحديد.. والمنجنيز.. والرصـــاص.. والمياه المعدنية ذات الخاصية العلاجية التي جعلتها واحدة من أفضل المشافي في العالم.. وقد أقام التتار المسلمون في شبه جزيرة القرم منذ زمن بعيد.. وسيطرت على أجزاء واسعة من روسيا وسيبيريا.. وخضعت لحكم العثمانيين عام ١٥٢١ في عهد محمد الفاتح.. وأصبحت ولاية من ولايات الدولة الإسلامية.. وأعلنت روسيا رسمياً ضم القرم عام ١٧٨٣.

(٦) يُذكر أن رواية كوخ العم توم مُنعت في روسيا في عهد نيقولا الأول بسبب ما نُشر فيها عن أفكار المساواة.. وذلك حتى لا يجد الأقنان تشابهًا بين حياتهم وأحداث الرواية.. الأمر الذي قد يدفعهم للتمرد والثورة على أسيادهم.

وفي فترة لاحقة قام العرش بمساعدة الفلاحين على دفع قيمة هذه المخصصات.. وبالتالي مساعدتهم على إبراء ذمتهم من جميع الالتزامات تجاه الملاك.. وتجسدت هذه المساعدة بقيام العرش بدفع مبلغًا من المال للملاّك يقوم الفلاحون بسداده إلى القيصر.. خلال تسعة وأربعين عامًا بفائدة ٦%. لم تكن المبالغ المالية المقدمة للملاّك محسوبة على قيمة المخصصات.. بل كانت بمثابة تعويض عن فقدانهم الحسنات التي كانوا يحصلون عليها جراء عمل العبيد.

وكان من نتيجة تحرير الأقنان أن تقلصت مساحة أراضي العديد من الإقطاعيين التي كان يسكنها فلاحون منذ فترة العبودية ثم آلت إليهم بعد التحرير.. وكثيراً ما حرم الملاّك من أراض كانوا في أشد الحاجة إليها لتأمين مورد رزق مستمر.. أي المراعي حول منازلهم. وكان الحل الذي فرضته الدولة.. إجبار الفلاحين على استئجار الأرض من أسيادهم السابقين.

وبناءً على الوقائع والضغوط التي أشرنا إليها آنفاً ومارستها هذه الحركة والرأي العام.. قام ألكسندر الثاني بإلغاء نظام العبودية بنفسه بدلاً من انتظار لأن يتم إلغائه عن طريق ثورة شعبية.

وكان تحرير الأقنان في سنة ١٨٦١ هو أهم أحداث التاريخ الروسي في القرن التاسع عشر.. وكان ذلك بداية النهاية لاحتكار الطبقة الأرستقراطية للسلطة.. فقد أدّى التحرر إلى انتقال جزء كبير من العمالة الحرة من الريف إلى المدن.. الأمر الذي نجم عنه نمو القطاع الصناعي.. وزيادة حجم الطبقة الوسطى.. وتأثيرها على المجتمع.. إلا أن الحكومة لم تقدم للعبيد المحررين الأراضي التي عملوا بها وعاشوا فيها طيلة سنوات.. وعوضًا عن ذلك فُرض على هؤلاء الفلاحين دفع ضريبة خاصة إلى الحكومة مدى الحياة.. ثم تقوم الحكومة بدفعها للملاك ثمنًا وتعويضًا لهم عن الأرض التي فقدوها.. وفي أحيان عديدة رَهَنَ الفلاحون الأرض نتيجة فقرهم الشديد وعدم مقدرتهم على تسديد هذه الضريبة.

نظام المير

«المير» هو مجتمع القرية.. وهو الذى امتلك جميع الأراضي التي سُلّمت للفلاحين من قبل الحكومة.. أي أن هذه الأراضي كانت عبارة عن ملكية مشتركة بين جميع أفراد القرى وكبارها.. وكان المير يُقسّم الأراضي بين الفلاحين ويُشرف على إدارة المقتنيات والحقوق الحيازية المختلفة.. وعلى الرغم من إلغاء العبودية.. إلا أن إلغاءها تحقق بشروط غير مواتية للفلاحين.. وبناءً على هذا.. لم تفتر التوترات الثورية بل بقيت على حالها.. على الرغم من النوايا الطيبة لألكسندر الثاني.

تصاعد أزمة البلقان

في أواخر عقد السبعينات من القرن التاسع عشر.. اشتبكت روسيا والدولة العثمانية مرة أخرى في بلاد البلقان.. وتصاعدت أزمة البلقان من سنة ١٨٧٥ حتى سنة ١٨٧٧ بسبب تمرد القوميات السُلافية[٧] المختلفة ضد الحكم العثماني.. الأمر الذي أدى إلى اتباع العثمانيين لسياسة قمعية ضد هذه الحركات.. اعتبرتها الإمبراطورية الروسية وحشيّة كبيرة.. وأصبح الرأي القومي الروسي يشكل عاملاً محليًا خطيراً لدعمه للمسيحيين في منطقة البلقان للتحرر من الحكم العثماني.. ودعمه لاستقلال بلغاريا والصرب.

٧) السلافيون هم المتحدثون باللغات السلافية.. ويستقرون أساساً في أوروبا الوسطى.. وأوروبا الشرقية.. ودول البلقان.. وقاموا في العصور الأخيرة باستيطان آسيا الشمالية.. وهناك نظرية تقول أن الهندو- أوروبيين الأوائل وكذلك السلاف الأوائل تعود أصولهم إلى السهول الروسية الموجودة في المنطقة الواقعة في أوكرانيا والأجزاء الجنوبية من روسيا.. ويرى بعض علماء التاريخ أن موطن السُلاف الأوائل هو أوروبا الوسطى التى استوطنوها منذ أمدٍ بعيد.. وأنهم هم أصحاب الثقافة اللوساتية.. وثقافة برزي كل من ورسك.

وفي أوائل عام ١٨٧٧ تدخلت روسيا نيابةً عن القوات الصربية والمتطوعين الروس عندما أعلنت الحرب على الدولة العثمانية.. وفي غضون سنة واحدة.. كانت القوات الروسية قد اقتربت من حدود الأستانة.. عاصمة الدولة العثمانية.. بشكل لا يدعو للاطمئنان.. فاضطر العثمانيون إلى الاستسلام.

أقنع الدبلوماسيون القوميون والألوية الروس القيصر ألسكندر الثاني بإجبار الدولة العثمانية على توقيع معاهدة سان ستيفانو[٨] في مارس من سنة ١٨٧٨ والتي اعترف العثمانيون بمقتضاها باستقلال بلغاريا.. وبامتداد حدودها إلى جنوب غرب البلقان.

وعندما هددت بريطانيا بإعلان الحرب على روسيا بسبب بنود معاهدة سان ستيفانو التي كان من شأنها توسعة النفوذ الروسي في المنطقة بما يتعارض مع مصالح بريطانيا.. تراجعت روسيا عن قراراتها لأن معظم قواتها.. ومواردها قد استنْزِفَتْ في حروب البلقان.. مما جعلها غير قادرة على مواصلة التحدى مع دولة بقوة بريطانيا.

مؤتمر برلين

وفي مؤتمر برلين في شهر يوليو من سنة ١٨٧٨ وافقت روسيا علي التضييق من حدود بلغاريا.. نتيجة لذلك.. أخذ السلافيون القوميون ينظرون بحقد إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية وألمانيا لفشلها في دعم روسيا.. كل ذلك ساعد على تحفيز التوترات الثورية في البلاد.

***

أرثوذوكسية.. وأوتوقراطية.. ووطنية

ثم قامت منظمة «نارودنايا فوليا»[٩] الإرهابية باغتيال القيصر ألكسندر الثاني في عام ١٨٨١ بعدها تولى العرش ابنه ألكسندر الثالث (١٨٨١-١٨٩٤) المعروف بالرجعية وإيمانه الشديد بشعار نيقولا الأول: «أرثوذكسية.. وأوتوقراطية.. ووطنية».

واعتقد ألكسندر الثالث أن بإمكانه إنقاذ روسيا من الفوضى عن طريق ابتعاده عما أسماه بالتأثيرات التخريبية لدول أوروبا الغربية.. وأبرمت روسيا في عهد هذا القيصر اتحاداً مع جمهورية فرنسا لاحتواء القوة المتنامية لألمانيا.. كذلك فرضت كامل سيطرتها على آسيا الوسطى.. وانتزعت تنازلات إقليمية وتجارية هامة من الصين.

---

٨) معاهدة سان ستيفانو كانت معاهدة بين روسيا والإمبراطورية العثمانية في ختام الحرب الروسية التركية التى نشبت خلال عامي (١٨٧٧ - ١٨٧٨) وتم توقيع المعاهدة في ٣ مارس عام ١٨٧٨م في سان ستيفانو.. وتعرف أيضاً باسم المعاهدة التمهيدية لسان ستيفانو.. وتتكون هذه المعاهدة من ٢٩ مادة وقد وقعها عن الجانب التركي صفوت باشا.. وأدت هذه المعاهدة إلى ظهور دولة بلغاريا.. التى تعاونت مع روسيا للإجهاز على الدولة العثمانية لتصبح تحت التوجه الروسي.. وبالتالى يصبح التوازن الدولي في المنطقة لصالح روسيا بشكل حاد.

٩) نارودنايا فوليا تعرف فى الإعلام العربي باسم منظمة إرادة الشعب، وهى منظمة إرهابية روسية لاقت شهرة كبيرة بعد قيامها باغتيال القيصر ألكسندر الثاني.. كان للمنظمة لجنة تنفيذية مسؤولة عن تجميع شبكة من المنظمات المحلية والخاصة (التي تتألف من العمال والطلاب وأفراد من الجيش) وفي ١٨٧٩-١٨٨٣ كان لنارودنايا فوليا فروعاً في خمسين مدينة.. كان من أشهرها فرعى أوكرانيا ومنطقة الفولجا.

قسطنطين بوبيدونوستيف و سياسة «الروسنة»

كان قسطنطين بوبيدونوستيف مستشار القيصر الأكثر نفوذاً.. وهو معلم ألكسندر الثالث ونجله نيقولا الثاني.. والنائب العام للمجمع المقدس من سنة ١٨٨٠ حتى سنة ١٨٩٥ ولقن تلاميذه القياصرة الملكيين الخوف من حرية التعبير والصحافة.. وعمل على تعميق كراهيتهم للديمقراطية.. والدستور..

والنظام البرلماني.. الأمر الذي تنامى داخلهم.. وكان من شأنه بعد توليهم زمام الأمور السعي لقتل وقمع الثوريين واعتماد سياسة «الروسنة» في جميع أنحاء الإمبراطورية..

نيقولا الثاني

خلف القيصر نيقولا الثاني (١٨٩٤-١٩١٧) والده ألكسندر الثالث في الأول من نوفمبر سنة ١٨٩٤ وفي بداية عهده بدأت الثورة الصناعية تؤثر بشكل ملحوظ على الإمبراطورية الروسية.. فنادى الليبراليون من أصحاب رؤوس الأموال الصناعية.. والنبلاء بإصلاح اجتماعي سلمي.. وبمَلَكية دستورية.. وقاموا بتشكيل الحزب الدستوري الديمقراطي.

أما الثوريون الاجتماعيون فدعوا إلى توزيع الأراضي بين أولئك الذين عملوا فعلاً فيها.. أي الفلاحين.. وكانت هناك أيضاً مجموعة أخرى متطرفة وهي الحزب الاشتراكي الديمقراطي.. من الدعاة إلى الماركسية في روسيا.. حيث دعوا إلى استكمال الثورة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

العلاقات السياسية لروسيا القيصرية

حاولت روسيا القيصرية تعزيز مكانتها السياسية في أوروبا بقدر الإمكان.. وذلك عن طريق علاقاتها الدبلوماسية مع الجميع.. لكن كانت الدولتان الأهم بالنسبة لروسيا في هذا التوقيت هما فرنسا.. وبريطانيا..

مع فرنسا

أدى توحد ألمانيا.. والنمو الصناعي الكبير الذي حققته إلى قيام حلف عسكري بين روسيا وفرنسا وُقّع عام ١٨٩١ وتضمن الحلف بنوداً تنص على المساعدة المتبادلة في حالة قيام الإمبراطورية الألمانية.. أو الإمبراطورية النمساوية المجرية بالهجوم على روسيا أو فرنسا.. وأصبح «جسر ألكسندر الثالث» المقام على نهر السين في فرنسا الذي بناه نيقولا الثاني سنة ١٨٩٦ و«جسر تروتسكي» على نهر نيفا في سانت بطرسبرج الذي صممه الفرنسيون واللذان أُكمل بنائهما في نفس الوقت.. رمزاً للصداقة الروسية الفرنسية والتقارب السياسي والثقافي بين البلدين.

اللعبة الكبرى مع بريطانيا

بدأت العلاقة بين البلدين تتوتر بشدة بسبب طموح روسيا في الوصول إلى المياه الدافئة في المحيط الهندي بينما أرادت بريطانيا منع القوات الروسية من أخذ موقع متقدم لمحاولة الهجوم على الهند.. وكذا التنافس بينهما على آسيا الوسطى.. فيما أطلق عليه «اللعبة الكبرى» في أواخر القرن التاسع عشر.. وأعلنت كلا البلدين الحرب على بعضهما البعض سنة ١٨٨٥ .

ثم نقفز زمنًا حتى أكتوبر من عام ١٩٠٥حيث هاجم أسطول «مستنكلي» الروسي قوارب صيد بريطانية.. فبدأت المملكة المتحدة تعد العدة للحرب.. وقد شمل هذا استعداد عدد من الغواصات الملكية للهجوم على الأسطول الروسي.

تأسيس كتلة التفاهم الودّي الثلاثي

لكن عاد البلدان ليتقاربا من جديد.. وبمساعي بدأتها فرنسا.. وأدى ذلك إلى تأسيس كتلة التفاهم الودّي الثلاثي التي ضمّت بريطانيا وفرنسا وروسيا.. وعند نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ حيث حاربت القوات الفرنسية والروسية جنبًا إلى جنب ضد الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية النمساوية المجرية وحلفائهما.

الجيش في الإمبراطورية الروسية

كان الأباطرة.. أو القياصرة.. هم القواد الأعلى للجيش.. وبفضل التفوق التكتيكي والعددي لهذا الجيش.. لذا كانت الإمبراطورية الروسية دوماً واحدة من أكبر القوى العسكرية في العالم على مدار تاريخها.

وبشكل عام تغلب الجيش الإمبراطوري الروسي طوال فترة القيصرية على جيوش كبرى.. واستطاع هزيمة قادةً كباراً ربما كان أهمهم نابليون بونابرت في الفترة الممتدة بين عاميّ ١٨١٢ و١٨١٤ قبلها وبعدها قاد العديد من الحروب ضد العثمانيين من سنة ١٦٧٦ حتى سنة ١٩١٧.

ثم اندثرت تسمية «الجيش الإمبراطوري الروسي» في سنة ١٩١٧ عندما تم تحويله إلى الجيش الأحمر.. القوة العسكرية للاتحاد السوفياتي.

المجتمع في روسيا القيصرية

تم تقسيم مواطني الإمبراطورية الروسية بحسب الطبقات الاجتماعية.. أو الفئات.. التي ينتمون إليها.. مثل طبقة النبلاء ورجال الدين والتجار والقوزاق والفلاحين.. وقد تمّ وضع السكان الأصليين من منطقة القوقاز.. وغيرهم من عرقيات المناطق الروسية مثل تتارستان وباشقيرستان وسيبيريا وآسيا الوسطى رسميًا في فئة تسمى «إينورودتسي».. التي تعني حرفيًا: «أناس من أصل آخر».. ويُقصد بها «غير السلافيين».

طبقات المجتمع

كانت طبقة الفلاحين تُشكل أكبر طبقات مجتمع الإمبراطورية الروسية.. حيث انتمى ٨١,٦% من السكان إلى تلك الطبقة.. أما الباقين فتوزعوا على الشكل التالي:

- ١,٣% من طبقة النبلاء..
- ٠,٩% من طبقة رجال الدين..
- ٩,٣% من طبقة التجار..
- ٦,١% من طبقة العسكريين.

ويُظهر هذا التصنيف أن أكثر من ٨٨ مليون روسي كانوا من الفلاحين.. وتظهر الوثائق والمعلومات التاريخية أن جزءاً كبيراً منهم كان ينتمي إلى طبقة الأقنان.. فقد ذُكر في إحصاء من سنة ١٨٥٨ أن إحدى عشر مليوناً من الفلاحين كانوا عبارة عن أقنان.. يُباعون ويُشترون مع الأراضي التي يعملون فيها.. أما ما تبقى فهم «فلاحو الدولة»..

الهيكل الإداري في روسيا _القيصرية

مجلس الوزراء

قبل إنشاء مجلس الوزراء بموجب قانون ١٨ أكتوبر لسنة ١٩٠٥ لمساعدة الإمبراطور في شؤون الإدارة العليا تحت إشراف رئيس الوزراء.. كان القيصر.. أو الإمبراطور الروسي هو دوماً «الحاكم الأوحد».. أو «الحاكم بأمره» كان بيده منفرداً كل مقاليد الحكم.. والرأى الأول.. والأخير في شؤون مملكته.. وفي التاريخ المشار إليه كانت تلك أول مرة يظهر فيها مسمى «مجلس الوزراء» فى تاريخ روسيا.. وكان هذا المجلس يتألف من جميع وزراء ورؤساء الإدارات الرئيسية.. أما الوزارات فكانت على النحو التالي:

- وزارة الحاشية الإمبراطورية
- وزارة الشؤون الخارجية.
- وزارة الحرب .
- وزارة البحرية .
- وزارة المالية .
- وزارة التجارة والصناعة (التي أنشئت في سنة ١٩٠٥) .
- وزارة الشؤون الداخلية (بما في ذلك الشرطة.. والصحة.. والرقابة على الصحافة والتلغراف والبريد والديانات الأجنبية.. والإحصاءات)
- وزارة الزراعة.
- وزارة الطرق والمواصلات.
- وزارة العدل.
- وزارة التربية الوطنية.

لكن كان هناك قبل ظهور مجلس الوزراء المجمع المقدس ومجلس الشيوخ.. وكان مقراهما في ساحة مجلس الشيوخ بمدينة سانت بطرسبرج.

المجمع المقدس

أُنشئ المجمع المقدس في روسيا سنة ١٧٢١ وكان يتألّف من ثلاثة مطارنة من موسكو.. وسانت بطرسبرج.. وكييف.. ورئيس أساقفة جورجيا.. وعدد من الأساقفة بالتناوب.. وكان هو الجهاز الأعلى للحكومة في الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا.. وكان يرأس هذا المجمع «المدعي العام» الذي يُمثل الإمبراطور.

مجلس الشيوخ

أُنشئ مجلس الشيوخ أساسًا خلال عهد الإصلاحات لحكومة بطرس الأول.. وكان يتألف من أعضاء معينين من قبل الإمبراطور.. واختصت الإدارات المتعددة الداخلة في تكوينه بتولّي الوظائف المختلفة التي يُعهد بها إليها.. وكان هذا المجلس هو نفسه محكمة النقض العليا.. ولعب إلى جانب ذلك دور مكتب مراجعة الحسابات.. ومحكمة العدل العليا المختصة بنظر جميع الجرائم السياسية.

كما كان له الاختصاص الأعلى للفصل في جميع المنازعات الناشئة عن العقود الإدارية للإمبراطورية.. والمنازعات الناشئة بين الإدارة والأفراد أو بين الإدارات المختلفة نفسها.. لا سيما الخلافات بين ممثلين عن السلطة المركزية والهيئات المنتخبة للحكم الذاتي المحلي.

كذلك.. أصدر هذا المجلس عدداً من القوانين الجديدة.. الأمر الذي أدّى إلى تمتعه بسلطة أقرب إلى سلطة المحكمة العليا للولايات المتحدة من الناحية النظرية.. من حيث إمكانية رفض اتخاذ أية تدابير تتعارض مع القوانين الأساسية للإمبراطورية.

بيان أكتوبر وإنشاء الدوما الوطني

وفي شهر أكتوبر من سنة ١٩٠٥ أصدر نيقولا الثاني بيان أكتوبر الشهير على مضض.. وأقرّ فيه إنشاء الدوما الوطني (البرلمان) ودعوته للانعقاد دون تأخير.. شمل الحق في التصويت عدة فئات شعبية ولم يُطبق أي قانون دون الحصول على الموافقة عليه من مجلس الدوما.. وكان من شأن هذا إرضاء الجماعات المعتدلة.. ولكن الاشتراكيين رفضوا التنازلات التي قالوا أنها غير كافية.. وحاولوا تنظيم إضرابات جديدة.. وبحلول نهاية عام ١٩٠٥ كان هناك انقسام بين الإصلاحيين.. فكان عاقبة ذلك أن تعزز موقع القيصر لفترة من الزمن.

المجلس الأعلى فى البرلمان

وبعد صدور قانون ٢٠ فبراير لسنة ١٩٠٦ اندمج مجلس الإمبراطورية بمجلس الدوما.. فأصبح يُعرف بالمجلس الأعلى في البرلمان.. أي بمثابة مجلس شيوخ.. ومنذ ذلك التاريخ اقتُسمت السلطة التشريعية في البلاد بين المجلسين والإمبراطور.. فلم يعد بإمكان الأخير إصدار إي قرار إلا بعد استشارتهما.

كان مجلس الإمبراطورية يتألف من ١٩٦ عضواً نصفهم يختارهم الإمبراطور بنفسه.. في حين كان الثماني والتسعين الباقين يصلون إلى مراكزهم عن طريق الانتخاب.

بينما كان الوزراء.. المعينين من قبل الإمبراطور أيضًا أعضاءً في المجلس بحكم مناصبهم.. وكان يتم انتقاء الأعضاء المنتخبين في مجلس الإمبراطورية الروسية على النحو التالي:

- ٣ من «رجال الدين السود» (الرهبان)..
- ٣ من «رجال الدين البيض» (العلمانيين)..
- ١٨ من طبقة النبلاء..
- ٦ من أكاديمية العلوم والجامعات..
- ٦ من غرف التجارة..
- ٦ من المجالس الصناعية..
- ٣٤ من الأقاليم ذات حكومات الزيمتوف المحلية..
- ١٦ من الأقاليم التي لا تتمتع بحكومات الزيمتوف..
- ٦ من بولندا..

وكانت سلطات مجلس الإمبراطورية يتم تنسيقها مع سلطات مجلس الدوما.. بوصفهما هيئة تشريعية موحدة.. لكن في الواقع العملي.. فإن هذا المجلس نادراً ما كان يسن تشريعات.

مجلس الدوما والنظام الانتخابي

كان يتم انتخاب أعضـــاء مجلس الدوما في عملية معقدة للغاية والمفروض أنه كان يتكون من ٤٤٢ عضواً.. وكانت عضوية المجلس يتم التلاعب بها لضمان كون الأغلبية الساحقة من الأعضاء تنتمي إلى طبقة الأثرياء.. وأيضًــا ليُشــكل ممثلو الشــعب الروســي أكثرية نيابية على حســاب باقي الدول الخاضعة للإمبراطورية.. وكان لكل مقاطعة من مقاطعات الإمبراطورية - باستثناء آسيا الوسطى - عدد معين من الأعضــاء بداخل المجلس.. يُضــاف إلى ذلك أعضــاء من المدن الكبرى.. وكان أعضــاء مجلس الدوما يتم اختيارهم عن طريق عدد من المجمعات الانتخابية.. التي كانت بدورها.. تُنتخب عن طريق مجالس تتكون من فئات ثلاث هى:

- أصحاب الأراضي..
- المواطنون..
- الفلاحون..

وكان الأغنياء يحضرون الجلسات بأنفسهم.. في حين كان الفلاحون يُمثلون من قِبل مندوبين.

وقُسّم سكان المدن إلى فئتين وفقًا للثروة الخاضعة للضريبة..

أما مندوبي الفلاحين فقد اختيروا وفقًا للتقسيمات الإقليمية..

بينما عومل العمال بطريقة خاصة.. حيث قام كل رب عمل صناعي بتعيين خمسين عاملاً أو أكثر.. كي يضمن انتخابه كمندوب في المجمع الانتخابي.

وفي المجمع نفســه كان التصــويت لانتخاب أعضــاء مجلس الدوما يتم عن طريق الاقتراع الســري.. وبأغلبية بسيطة تُجمع خلال يوم واحد.. وبسبب كون الغالبية تتألف من العناصر المحافظة.. أي أصحاب الأراضــي ومندوبى المناطق الحضــرية.. فإن فرصــة التقدميين في التمثيل كانت ضــئيلة.. والغريب في هذا الشــأن أن عضــواً واحداً على الأقل في كل حكومة كان يتم اختياره في كل من الفئات الخمس الممثلة في الكلية.

ويرجع خلو مجلس الدوما من أي عناصر متطرفة أساسًا إلى الامتياز الخاص الذي تمتعت به سبع مدن كبرى هي: سانت بطرسبرج.. وموسكو.. وكييف.. وأوديسا.. وريجا.. إلى جانب مدن وارسو.. وودج البولندية.. حيث انتخبت هذه المدن مندوبيها في مجلس الدوما مباشــرةً.. وعلى الرغم من أن الأصوات انقسمت على أساس ضريبة الملكية، للسماح للأغنياء بالتقدم على باقي المرشحين.. فإن كل مدينة كان لها نفس العدد من المندوبين..

بداية ظهور المناشفة.. والبلاشفة

وفي عام ١٩٠٣ انقســم الحزب إلى جناحين في مدينة لندن.. المناشــفة أو المعتدلين والبلشــفية أو المتطرفين.. اعتقد المناشفة بأن الاشتراكية الروسية سوف تنمو تدريجيًا بشكل سلميّ.. وذلك أن نظام القيصــر ينبغي أن يتحول إلى جمهورية يتعاون فيها الاشــتراكيون مع الأحزاب الليبرالية البورجوازية على بناء الوطن.. دعا البلاشــفة.. بزعامة فلاديمير لينين.. إلى تشــكيل نخبة صــغيرة من الثوريين المهنيين.. تخضع لانضباط الحزب القوي.. لتكون بمثابة طليعة الطبقة الكادحة من أجل الاستيلاء على السلطة بالقوة.

الحرب الروسية اليابانية

وكان فشـل القوات المسـلحة الروسـية في تحقيق النصـر في الحرب الروسـية اليابانية (١٩٠٤-١٩٠٥) بمثابة ضربة قوية للنظام القيصري.. والتي زادت من احتمالات حدوث قلاقل.

الأحد الدامي

في شهر يناير من سنة ١٩٠٥ وقعت الأحداث المعروفة باسم الأحد الدامي.. إذ قاد الأب «جورجي جابون» حشداً هائلاً من الناس إلى قصر الشتاء[١٠] في سانت بطرسبرج لرفع عريضة إلى القيصر.. وعندما وصـل الموكب إلى القصـر.. فتح القوزاق[١١] النار على المتظاهرين.. مما أسـفر عن مقتل المئات.

وثارت الجماهير الروسية بفعل أحداث بالمجزرة مما أدى إلى إعلان المطالبة بقيام الجمهورية.

إرهاصات الثورة

وكانت هذه علامة على بداية الثورة الروسـية عام ١٩٠٥ فظهرت السـوفيات (مجالس العمال) في معظم المدن لمباشرة النشاط الثوري وحث الناس عليها.. فأصبحت روسيا مشلولة.. والحكومة يائسة لا تقدر على إيجاد حل جازم ونهائي لتلك الأزمة.

روسيا والقضاء على القيصر

دخل القيصـر نيقولا الثاني الحرب العالمية الأولى بحماسـة يدفعها شـعوره الوطني وإحساس قومي باسم الدفاع عن أخوة الروس من السُلاف الأرثوذكس والصرب ضد معسكر ما عُرِفَ فيما بعد بدول المحور وبالطبع في مقدمتهم ألمانيا.

وبالنسـبة لروسـيا لم يكن يشـكل الجيش قسـوة فعَّالة إلا ضـد الشـعوب نصـف البربرية.. والجيران الضـعاف.. والدول السـائرة على طريق التحلل.. ولم يكن هذا الجيش قادرًا على العمل فوق الأرض الأوروبية إلا كجزء من تحالفات كبيرة.

كما لم يكن مؤهلاً للدفاع عن البلاد إلا إذا اعتمد على سـعة المسـاحات.. وندرة السـكان.. وانعدام صـلاحية الطرقات.. وأدى الإلغاء النصـفي للقنانة.. وتطبيق الخدمة العسـكرية الإلزامية.. إلى تحديث الجيش والبلاد.. وأدخلا إلى الجيش كافة الصراعات الاجتماعية.

والحقيقة أن بناء الجيش القيصري وتسليحه كانا يجريان وفق الأساليب الغربية.. ولكن هذه الأساليب كانت تهتم بالشـكل لا المحتوى.. ولم يكن هناك أي رابط بين المسـتوى الثقافي الذي يحمله الفلاح الجندي.. ومستوى التقنية العسكرية الحديثة.

---

(١٠) قصر الشتاء موجود في موسكو.. وهو المكان الرسمي لإقامة القياصرة الروس في سان بطرسبرج= =من سنة ١٧٣٢ إلى ١٩١٧ الذي عاشـت فيه آخر عائلة روسـية قيصـرية من عائلة رومانوف قبل الثورة البلشـفية.. وهي عائلة نيكولاس رومانوف الثاني وزوجته ألكسندرا وبناته الأربع أولقا.. تاتيانا.. ماريا وانستازيا.. وابنه الوحيد ألكسي.. وهو اليوم جزء من متحف الأرميتاج.

(١١) القوزاق هم جماعة من السكان الأقنان السُلاف المسيحيين الذين فروا من ضياع النبلاء البولنديين في أوكرانيا واستوطنوا أراضـي الأستبس على ضفاف نهر الدنيبر.. وأنحاء أخرى في شبه جزيرة القرم.. اشتهروا بالفروسية.. والمهارة القتالية.. وأسسوا لهم مملكة خاصة في نهاية القرن السادس عشر.

وكان الجهل المُطبق والكسل وتفاهات الطبقات المسيطرة الروسية سائدة وسط مجموعة الضباط.. وظهرت الصـــناعة والمواصـــلات عاجزة عن تلبية حاجات زمن الحرب المتزايدة.. في حين بدت الجيوش في أيام الصراع الأولى مستعدة كما ينبغي.

ثم لم تلبث القطاعات العسكرية أن وجدت نفسها سريعة محرومة من الأسلحة والأحذية أيضًا.

وكان الجيش القيصري قد كشف عن حقيقة قوته خلال الحرب الروسية - اليابانية.. وفي فترة الثورة المضادة عملت الملكية بمساعدة الدوما على ملء مستودعاتها الحربية.. وأجرَت في الجيش عدة إصلاحات.. وعملت ما في وسعها لإعطائه صفة الجيش الذي لا يُقهر.. وجاءت الحرب في عام ١٩١٤ لتتحقق من قوة هذا الجيش بصورة جد أليمة.

ومنذ الضـربة الأولى وجدت روسـيا نفسـها تابعة لحلفائها بشـكل ملحوظ في مجال المعدات الحربية والتمويل.. ولم يكن هذا الأمر سوى امتداد لتبعية روسيا العامة بالنسبة للبلاد الرأسمالية الأكثر تقدمًا.

ولكن مسـاعدات الحلفاء لم تنقذ الموقف.. وكانت قلة الذخيرة.. وصِـغر عدد المصـانع التي تقدمها.. وامتداد شـبكة السكك الحديدية اللازمة لتوزيعها.. تترجم حالة التخلف الروسـية بلغة الهزائم الواضـحة التي ذَكَّرت الوطنيين – الليبراليين بـأن أســـلافهم لم يقوموا بثورتهم البرجوازيـة.. وأن على الأجيـال اللاحقة أن تسدد دين أسلافها أمام التاريخ.

وكانت أول أيام الحرب هي أهم أيام العار.. وبعد عدد من الكوارث الجزئية.. قامت القوات الروسية بالانسحاب العامِ في ربيع ١٩١٥.

وانتقم الجنرالات من الســـكان المدنيين ليُخفوا عجزهم الإجرامي.. واجتاحت موجة العنف مناطق واسعة من البلاد.

وعندما سأل أحدهم وزير الحربية الجنرال بوليفانوف عن الوضع في الجبهة رد بقوله:

«إنني أثق بسعة مساحة بلادنا.. وأعتمد كل الاعتماد على وَحلها الذي لا يمكن اجتيازه.. كما ألتجئ إلى رحمة القديس نيقولا سيد روسيا المقدسة»

وبعد ٨ أيام اعترف الجنرال روسكي أمام الوزراء بقوله:

«إن المتطلبات الحديثة للتقنية العسـكرية أكبر من إمكانياتنا.. وليس بوسـعنا منافســة الألمان في أية حال من الأحوال».

ولم يكن هذا نوعًا من المزاح.. فلقد ذكر ضابط كان يدعي ستانكيفيتش في مذكراته فيما بعد بأن قائد إحدى وحدات المهندسين ذكر أمامه ما يلي:

«أن الحرب ضـد الألمان بلا أمل.. لأننا عاجزون عن القيام بأي شـيء مهما كان نوعه.. وتسـبب أساليب القتال الجديدة لنا كثيرًا من النكسات».

وفي أغسطس سنة ١٩١٤ دخل الجيش الروسـي ألمانيا لدعم الجيوش الفرنسـية.. لكن قطعت السيطرة الألمانية على بحر البلطيق والسـيطرة الألمانية- العثمانية على البحر الأسـود وصـول المدد من الخلف إلى روسيا عن طريق حلفائها والأسواق الخارجية.

وعبَّأت روسيا حوالي ١٥ مليون رجل من أبنائها بين صفوف الجيش غصت بهم المستودعات والثكنات والمعسكرات.. لدرجة أنهم كانوا يدوسون على بعضهم البعض وهم متراصون في المعسكرات.

وأصبح معظم الجنود الروس عبارة عن مجموعات هائلة مضطربة.. ثائرة.. وغاضبة.. وكانت هذه الجموع عاملاً فعالاً من عوامل الفوضى.

وخسرت روسيا حوالي ٥ ملايين ونصف رجل بين قتيل وجريح وأسير.

وتزايد عدد الهاربين من الجيش بشكل ملحوظ.

ومنذ يوليو ١٩١٥ أخذ الوزراء يتذمرون بأسى قائلين:

«مسكينة روسيا.. إن جيشها الذي ملأ أسماع العالم من قبل برعد انتصاراته.. لم يعد يضم سوى الجبناء والهاربين».. ويتندرون بأسلوبهم السخيف ويتحدثون عن «شجاعة الجنرالات في القتال التراجعي» والذين برز منهم رغم ذلك عدد من الجنرالات الذين لم يبرهنوا بأية حال من الأحوال على قدراتهم القتالية.. ولكنهم لم يكونوا مع ذلك مشبعين بالروح الانهزامية التي تحبط دائمًا القادة المهزومين.. وخرج منهم فيما بعد بعض «أبطال» ذاع صيتهم خلال معارك الحرب الأهلية.

من يتحمل المسؤولية؟

وكان الجميع يبحثون عمن يتحمل المسؤولية.. ووجهت تهمة التجسس إلى اليهود بلا استثناء.. وألقي القبض على من تحمل عائلتهم اسمًا ألمانيًا.. وأعطى مقر قيادة شقيق الملك نيقولا يفيتش أمرًا بإعدام العقيد مياسوييدوف نظرًا لأنه جاسوس ألماني دون وجود دليل مادى يؤكد ذلك.. ولعله كان بريئاً.

إعدام وزير الحربية

واعتقل وزير الحربية سوخوملينوف.. وهو رجل وصفته كتب التاريخ بأنه تافه ومتخلف.. ووُجِهّت إليه تهمة الخيانة العظمى.. وقد يكون لهذا الاتهام بعض الأساس.. وأعلن وزير الخارجية البريطاني السير إدوارد جري أمام رئيس الوفد البرلماني الروسي.. بأن حكومة القيصر تصرفت بطيش وتسرع عندما قررت اتهام وزير الحربية بالخيانة العظمى خلال الحرب.

اتهام البلاط الملكى

ووجهت القيادة العليا والدوما إلى البلاط الملكي تهمة ممالأة الألمان.. وكان كل هؤلاء يغارون من الحلفاء ويكرهونهم.. وكان القائد الفرنسي في المعركة المشتركة يحافظ على جنوده الفرنسيين بأن يعرض الجنود الروس للصدمة الأولى.

ولم تتحرك بريطانيا إلا ببطء بالغ.. وكان الجميع يرددون في صالونات بتروجراد.. ومقرات القيادة في الجبهة دعاباتٍ بريئة مثل:

«لقد أقسمت إنجلترا على الصمود حتى آخر نقطة دم.. من دماء الجندي الروسي».

وكانت مثل هذه النكات تتسلل إلى المستويات الدنيا.. وتنعكس على الجبهة.. وكان الوزراء والنواب والجنرالات والصحفيون يقولون: «كل شيء من أجل الحرب!» فأخذ الجندي القابع في الخندق يقول لنفسه: «نعم.. إنهم مستعدون للقتال حتى آخر قطرة.. من دمي».

خسائر غير مسبوقة

وأصيب الجيش الروسي خلال الحرب بخسائر لم يتعرض لها أي جيش آخر من الجيوش المشتركة في المذبحة.. إذ فقد الروس حوالي ٤٠٪ من مجموع خسائر جيوش الحلفاء كلها.

وكان التفتت في سلاح المشاة المكون في معظمه من الفلاحين أكبر من التفتت في أي سلاح آخر.. أما المدفعية التي تضم نسبة كبيرة من العمال الصناعيين.. فقد كانت تتميز عن غيرها من الأسلحة بارتفاع مستوى قدرتها على استيعاب الأفكار الثورية.

انسحاب غاليسيا

وخلال انسحاب غاليسيا أصدر القائد الأعلى للقوات الروسية تعليمات سرِّية تقتضي بجلد الجنود الهاربين أو الذين يرتكبون جرائم أخرى.. ويقول أحد الجنود في مذكراته:

«إنهم كانوا يضربون الرجال لأقل ذنب.. كغياب عدة ساعات من غير إذن.. وكانوا يمارسون الجلد أحيانًا لرفع معنويات أنفسهم».

وبدا الجنود وضباط الصف محطمين تماماً.. وأدَّى قتالهم التراجعي الطويل إلى فقدان إيمانهم بالنصر.. وأصبح اهتمام الجميع بلا استثناء منصب على شئ واحد هو السلام.. ومتى يتحقق.. ولا يهم من سيكون هو المنتصر.. كان الجميع يريدون الوصول إلى هذا السلام بأي ثمن.. بعد أن أنهكتهم الحرب تماماً[١٢].

وفي نفس التوقيت سرت شائعات لعبت بأعصاب المواطنين الروسيين وتشكلت على ثلاث محاور أساسية:

- قرب نفاذ المواد الغذائية والوقود..
- ازدياد عدد الضحايا- على الرغم من أنه حتى هذه اللحظة كان أقل من عدد ضحايا باقي الدول المتحاربة..
- تصاعد.. وازدياد معدل التضخم.

ومن ناحية أخرى ارتفع عدد الإضرابات التي قام بها عمال المصانع ذوي الأجور المحدودة.. وكانت هناك تقارير تفيد بأن الفلاحين الذين كانوا يطالبون بالإصلاح الزراعي.. أصبحوا على وشك الثورة.

وبتاريخ ٣ مارس سنة ١٩١٧ تم تنظيم إضراب من قِبل عمّال أحد المصانع في العاصمة سانت بطرسبرج وفي غضون أسبوع تقريبًا توقف جميع العاملين في المدينة عن متابعة أعمالهم.. واندلع القتال في الشوارع.

---

١٢) كان هناك ممرضة في مستشفى عسكري يستقبل مصابي الحرب من الجنود الروس تدعى «س. فيدور تشينكو» وكانت ذكية وقوية الملاحظة حيث التقطت بعض أحاديث الجنود لتكتشف حقيقة ما يحدث.. وفيما يفكرون.. وسجلت كل هذا على الورق.. ثم جمعته في كتيب أسمته «الشعب والحرب» استعرضت فيه كل ما تقدم.. وصورته ببراعة شديدة.

الطريق إلى ثورة ١٩١٧

كل تلك الأحداث كانت تسير بالبلاد نحو نتيجة منطقية واحدة.. وهى الثورة.. فطالما أنه أصبح من المستحيل تخليص البلاد من آثار الإقطاع القديمة.. ووصول البرجوازية إلى موقف الطبقة المسيطرة.. وعقد تحالف مسموم بين البلاط الملكي وطبقة النبلاء أصبح لابد أن تتحرك الليبرالية الروسية لتلعب هى الأخرى دورها على مسـرح الأحداث.. خاصـةً بعد أن فقدت الليبرالية آخر أمل لها بالنصـر العسكري للبلاد.. فكرت باستغلال الوضع الناجم عن الحرب بغية تطهير البلاط.. وإجبار الملكية على تقديم بعض التنازلات.. وكان سلاحها الأساسي في هذه العملية هو اتهام حزب البلاط بممالأة الألمان والسعي لعقد صلح منفرد.. وأصبحت الاتحادات العمالية.. ولجان الصناعات الحربية المشكلة في ربيع عام ١٩١٥ نقاط تستند إليها البرجوازية في نضالها من أجل النصر والسلطة.

البرجوازيون يعترفون

خلال ذلك وفيما بعد اعترف زعماء البرجوازية الروسـية بمحض إرادتهم بأن حرب ١٩١٤ كانت حربهم الخاصـة.. ففي ٢٦ يوليو ١٩١٤ وخلال اجتماع حافل لمجلس الدوما.. قال رئيس مجموع الكاديت:

«إننا لا نقدم شـروطًا أو مطالب.. ولكننا نلقي في كفة الميزان بكل إرادتنا الحازمة للانتصـار على العدو»..

وفي ربيع ١٩١٥ عندما كانت القطاعات المجردة من السـلاح تنسـحب على طول خط الجبهة.. قررت الأوساط الحكومية العليا تحت إلحاح الحاجة وضغط الحلفاء.. التوجه إلى الصناعة بغية تأمين متطلبات الجيش.. وعُقِدَ لهذا الغرض مؤتمر خاص ضـم البيروقراطيين وأكبر الصـناعيين وأكثرهم تأثيرًا..

رشاوى مُقَنَعَة

وقام البلاط بتوزيع عشرات ومئات ملايين الروبلات ارتفعت فيما بعد إلى أرقام فلكية بحجة تمويل الصناعة.. والهدف الحقيقي ضمان ولاء تلك التكتلات للبلاط[١٣].

وبلغت مختلف أشكال التلاعب ومضـاربات البورصـة ذروتها.. وارتفعت الثروات الضـخمة على بحار من الدماء كانت تسيل كل يوم في الجبهة.

وبدأ الناس يشـعرون بالنقص الحاد في الخبز والمواد التموينية.. في الوقت الذى أعلنت فيه مثلاً فيروبوفا وصيفة الشرف الإمبراطورية بأن البلاد لم تشهد فترة كشتاء ١٩١٥ – ١٩١٦ تم فيها طلب هذه الكمية من الألبسة الفخمة.. وشراء مثل هذا العدد من المجوهرات[١٤].

---

(١٣) استـفاد خلال عملية التوزيع عدد كبير من الأشـخاص.. فمثلاً ارتفعت أرباح شـركة النسـيج التي تمتلكها عائلة ترياوشينسكي - وهي عائلة ليبرالية موسكوفية- بمعدل ٧٥٪ كما ارتفعت أرباح شركة مني فاتورة (تفير) بنسبة ١١١٪ وبلغت أرباح شركة كولتشوجين لصناعة النحاس ١٢ مليونًا من الروبلات خلال سنة واحدة.. مع أن رأس مال الشركة لم يكن يتجاوز عشرة ملايين.

(١٤) أعلن محل المجوهرات فابيرجيه –المختص ببيع المجوهرات للبلاط الإمبراطوري أنه حقق أرباحًا لم يعرفها من قبل.

أما مجلس الدوما فقد انقسم على نفسه عشية اندلاع الحرب الأهلية.. وكانت التكتلات الداخلية فيه كالآتى:

- غالبيته المعارضة الوطنية التي اتخذت لنفسها اسم «الكتلة التقدمية».. وكان الهدف الرسمي المعلن لهذه الكتلة: «تلبية مطالب الحرب» وضمت الكتلة كافة المجموعات الأخرى الممثلة في مجلس الدوما مثل: الكاديت.. والتقدميين.. ومجموعات الأكتوبريين الثلاث.. والوسط.. وجزء من الوطنيين.. وانضمت إليها كافة المجموعات الوطنية: البولونية.. والليتوانية.. والإسلامية.. واليهودية.. وغيرها.
- تكتل آخر شمل أحزاب اليسار (الاشتراكيون – الديمقراطيون).. وحزب العمال.
- تكتل ثالث شمل أحزاب اليمين والمجموعات الصغيرة الشهيرة مثل: المائة السود المعروفة باسم (الرجعية إلى أبعد حد ممكن).

وخاف هذا التكتل من إثارة سخط القيصر.. فلم تطلب منه وزارة مسؤولة.. بل طالبت «بحكومة موحدة مؤلفة من شخصيات تتمتع بثقة البلاد».

ومنذ ذلك الحين وصف وزير الداخلية الأمير شتشيرباتوف هذه الكتلة بأنها مجموعة مؤقتة.. أو «تحالف منبثق عن الخوف من اندلاع ثورة اجتماعية».

وصرح ميليوكوف رئيس حزب الكاديت.. ورئيس كتلة المعارضة.. في أحد اجتماعات حزبه بما يلي: «إننا نسير على بركان.. فلقد وصل التوتر إلى أعلى درجاته.. ويكفي أن يلقي أحدهم عود ثقاب عن غير قصد حتى ينجم عن ذلك حريق رهيب.. ومهما كانت السلطة – سيئة كانت أم جيدة – فإن السلطة الحازمة ضرورية اليوم أكثر من أي وقت مضى».

سخرية الأقدار

هنا نتوقف لنشير لمفارقة غاية في الغرابة تؤكد أن كل كبار الدولة في هذا التوقيت كانوا يعملون فقط من أجل مصالحهم الشخصية.. ففى شهر أغسطس ١٩١٥ وتحت ضغط ما كانت تتعرض له البلاد من كوارث اضطر القيصر احتواءً للرأى العام إلى أن يقدم للصحافة قائمة تضم بعض الأسماء رشحهم للوزارة التى أطلق عليها مسمى «وزارة الثقة» وكان من ضمن هذه الأسماء:

- رئاسة الوزارة لرودزيانكو (رئيس الدوما)..
- غوتشكوف وزيرًا للداخلية..
- ميليوكوف وزيرًا للخارجية..

والمفارقة أن هذه الأسماء بعينها وكانوا من حلفاء القيصر ومن أشد المقربين له هى التى ستسعى فيما بعد للمشاركة بعد ١٨ شهرًا في حكومة «الثورة» وإعدامه.

كانت هذه هي الحكومة المزمعة.. وفي المقابل كان على الكتلة التقدمية أن تقدم بعض التنازلات.. وهكذا أصبح الطرفان على استعداد للمساومة.

تزامن هذا مع اعتراف الحكومة القيصرية بأنها لا تملك أي دعم أو تأييد.. ومع ذلك يبقى هنا سؤال تاريخي دائماً يطرح حول أحداث تلك الفترة.. وهو: كيف استطاعت الحكومة القيصرية الصمود بعد ذلك أكثر من ١٨ شهرًا؟

تجمع معظم المصادر على أن الإجابة الوحيدة المقبولة عن هذا السؤال تتمثل فيما يلي:

- ما حققه الجيش الروسي من نجاحات مؤقتة على جبهة القتال في فترات مختلفة..
- عنصر الرشاوى المقنعة التى أغدق بها البلاط على الجميع بالشكل السابق الإشارة إليه..
- التباين.. والاختلاف الشاسع والمتزايد بين طبقات المجتمع الروسي.. ذلك التباين الذي كشف عن وجود تناقضات حادة في المصالح الخاصة.. التي أخذت تظهر في تلك الفترة.

وهكذا كان الجميع لا يتوقعون اندلاع الثورة خلال الحرب.. ولكن هذا ما حدث.

فقد تفاقم الوضع بعد ذلك بصورة آلية.. ودُعي مجلس الدوما إلى الاجتماع في مايو ١٩١٦ لكن أعضاء المجلس لم يكن لديهم ما يقولونه أصلاً.. وأصبحت الجلسات خلال هذه الدورة خاملة لا حياة فيها.. وكان النواب غير متحمسين لأداء واجباتهم.. وبدا الصراع المستمر بلا جدوى.. إذ لم تكن الحكومة راغبة بسماع أي شيء.. وتزايدت الفوضى يومًا بعد يوم.. وكانت البلاد تسير إلى حتفها[١٥].

وتزايد تدهور الموقف مع قدوم الخريف.. وأحس الجميع بكل وضوح بأن الحرب غدت بلا أمل.. وأصبحت نقمة الجماهير تهدد بالانفجار في كل لحظة.

واستمر الليبراليون في هجومهم السابق على حزب البلاط واتهامهم له «بممالأة الألمان».. وقالوا للقيصر بكل صراحة: سلمنا مقاليد الأمور وسنؤمن لك كل شيء.. وكانوا يقصدون إنهاء الحرب بجر ألمانيا إلى سلام فردي.. وخروج روسيا من تحت مظلة الحلفاء.. ولكنهم رأوا في الوقت نفسه أن عليهم دراسة الموقف بعناية ليروا إمكانية وكيفية الوصول إلى هذا السلم المنشود.. خاصة وأنهم كانوا يعدون أنفسهم للمستقبل.

وكان من وجهة نظرهم أنه لا عاقل في روسيا ينكر أن البلاد لم تكن في حالة تسمح لها بمتابعة الحرب».

واستقبل القيصر فكرة السِلم المنفرد مستبشراً.. لكنه فى نفس الوقت كان يرى عدم ضرورة مشاركة الليبراليين في هذا المشروع.

وفي ١ نوفمبر ١٩١٦ اجتمع مجلس الدوما من جديد.. ووصل هياج البلاد إلى درجة لا تحتمل.. وانتظر الجميع أن يتخذ المجلس قراراتٍ حاسمة.. ووجدت الكتلة التقدمية نفسها من جديد مضطرة إلى كشف الحقائق داخل البرلمان.

لكن لم يكن هناك أي دواء قادر على إنقاذ النظام القديم من أمراضه.. وحاولت الملكية خنق البلاد دون ضجيج.. وذلك عن طريق تجزئة المقاومة.. وأجريت بعض التعديلات الوزارية.. ولم يدخل في الوزارة إلا كل من كان مخلصًا للقيصر وزوجته بشكل لا يقبل الشك.

وقررت الحكومة إعلان الأحكام العرفية.. وحددت لذلك تاريخ لاحق.. ولكن اندلعت الثورة.. وحققت انتصارها قبل أن يأتي هذا التاريخ.

---

(١٥) بحسب ما نُشِرَ فيما بعد على لسان أحد أعضاء الدوما وهو «رودزيانكو» في مذكراته.

ثورة فبراير وحل مجلس الدوما

بعدها تفجرت ثورة فبراير عندما حل القيصر مجلس الدوما.. وأمر المضربين بالعودة إلى العمل.

رفض مجلس الدوما تنفيذ قرار الحل.. وعقد المضربون اجتماعات جماهيرية تحديًا للنظام.. ووقف الجيش علنًا إلى جانب العمال.

حكومة مؤقتة

وبعد بضعة أيام أُنشئت حكومة مؤقتة برئاسة جريجوري لفوف[١٦] باختيار خاص من قبل مجلس النواب.. وفي اليوم التالي ألقي القبض على القيصر وأعلن أنه قد تنازل عن الحكم.. وتم إعدام نيقولا الثاني وأسرته[١٧] على أيدي البلاشفة في ليلة ١٧ يوليو سنة ١٩١٨.

الآن وبعد أن استعرضنا في التمهيد السابق الأجواء العامة لروسيا القيصرية منذ نشأتها .. ننتقل إلى مرحلة ظهور نجم ستالين وتجربته الفريدة .

---

(١٦) يورجي لفوف (عاش بين تاريخي ٢ نوفمبر ١٨٦١& ٧ مارس ١٩٢٥) وترأس الحكومة المؤقتة بعد ثورة فبراير.. وعندما تشكلت الحكومة الروسية المؤقتة من ٢٣ مارس ١٩١٧ إلى ٧ يوليو من نفس العام.. بعد إجبار الثورة نيقولا فى الثاني التنازل عن الحكم.. وإزالة الإمبراطورية الروسية وخلفه لاحقاً.. في رئاسة الحكومة المؤقتة وزير العدل ألكسندر كيرينسكي.. اعتقلته البلاشفة فترة بعدما توطد حكمهم.. ثم أُطلِقَ سراحه فسافر بعدها إلى باريس وأمضى بها بقية حياته.

(١٧) كانت أسرته مكونة من : زوجته.. وابنه.. وبناته الأربع.. وكان معهم طبيب العائلة.. وخادم القيصر وسيدة الإمبراطورة.. وأسرة الطباخ.. وتم تصفيتهم جميعاً في غرفة واحدة.

١.ستالين.. بورتريه بريشة الكلمات

اسـمه الحقيقي: جوزيف فيسـاريونوفيتش.. وهو القائد الثاني للاتحاد السـوفيتي.. ويعتبر المؤسـس الحقيقي لما يُعرف تاريخياً بالاتحاد الســوفيتي.. عرف بحكمته وقوته.. وكونه قائد ومفكر ومنظر من الطراز الأول.

مولده

وُلد ستالين في مدينة جوري [١٨] في الإمبراطورية الروسية..

الأم كانت فلاحة بسيطة تدعى «إيكاترينا».

أبوه كان إسكافياً يدعى «بيسو».. وكان مدمن خمر.. وقاسياً في معاملته لابنه ستالين.. يضربه بقسوة.. وفي النهاية ترك الأب عائلته ورحل.. وأصبحت الأسرة بلا عائل.

وعندما بلغ ستالين ١١ عامًا.. أرسلته أمه إلى المدرسة الروسية للمسيحية الأرثوذوكسية[١٩] على أمل أن يصـبح يوماً كاهناً.. لكنه أهمل دروسـه وبدأ يشـارك في تنظيمات الحركة الاشـتراكية.. مما اضطرت إدارة المدرسة الأرثوذكسية إلى طرده عام ١٨٩٩ بحجة عدم حضوره في الأوقات المحدّدة للامتحان.. وبذلك خاب ظن أمه في إمكانية عمله ككاهن.. والغريب أن هذا الحلم ظل يراودها حتى بعد أن أصبح ابنها رئيساً للبلاد.

بعد تركه للمدرسة الأرثوذوكسية تفرغ ستالين تقريباً لمدة ١٠ سنوات للعمل السياسي.. وتعرض خلال تلك الفترة للاعتقال.. والنفي إلى مدينة سيبيريا خلال الفترة بين عامي ١٩٠٢ & ١٩١٧.

سـياسـيًا اعتنق سـتالين المذهب الفكري لفلاديمير لينين.. وتأهّل لشـغل منصـب عضـو في اللجنة المركزية للحزب البلشفي في عام ١٩١٢.

زواجه

تزوج ستالين مرتين.. الأولى ماتت بالسل[٢٠] عام ١٩٠٧ أي قبل قيام الثورة بعشر سنوات ويقال أنه لم يكن لديه المال الكافي لعلاجها بعد أن أنفق كل ما لديه على الحزب.. وأنجب منها ياكوف ابنه الأكبر الذي حاول الانتحار ذات مرةٍ ونجا.. ثم التحق بالجيش وتم أسـره على يد القوات الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية ورفض ستالين أن يميزه في تبادل الأسرى وقُتِلَّ أثناء محاولته للهرب.

---

(١٨) جوري.. هي مدينة قديمة وتاريخية تقع في شرق جورجيا وتعتبر عاصمة منطقة شيدا كارتلي.. تبعد حوالي ٧٦كم غرب العاصمة الجورجية تبليسي.. تعاقبت على مدينة جوري العديد من الدول والحكومات من الفرس إلى العثمانيين الأتراك إلى الروس وغيرهم.

(١٩) هناك أنواع متعددة من الأرثوذكسية وليست كما هو مفهوم وشائع قاصرة على المسيحية فقط منها : أرثوذكسية يهودية.. أرثوذوكسية يهودية حديثة.. أرثوذكسية شرقية (مسيحية).

(٢٠) الدرن أو السل : هو مرض معدي جرثومي تسببه جرثومة تحمل نفس الإسم.. ويؤدي لتلف في أنسجة الرئة وأعضاء أخرى من الجسم.

أما زوجته الثانية فهى ابنة أحد أصـــدقائه المقربين وكانت تدعى (ناديا) تزوجها وهي ابنة ســـبعة عشر عاماً في سنة ١٩١٧ وكانت وقتها تدرس الهندسة بالجامعة.. وفي نفس الوقت شيوعية متحمسة.. أنجبت له طفلين.. توفيت في حياة زوجها.. والرواية الرســمية لوفاتها تقول أنها ماتت بمرض يســمى التهاب الصفاق(٢١) لكن هناك رواية أخرى تقول أنها انتحرت بإطلاق الرصاص على نفسها مباشرةً في القلب بسبب خلاف مع ستالين.

مثقف

كان ســتالين نهماً في القراءة.. يحب الاطلاع الواســع في مختلف الاتجاهات الفكرية والســياســية والاقتصادية والثقافية..

صاحب شخصية قوية

من الســمات الشــخصــية المعروفة جيداً عن ســتالين أنه كان يتمتع بشــخصــية قوية.. وكان يمتلك خصـــائص وســمات القائد الســياســي الذي لا يلين أو ينحني أمام العاصــفة أو في الأحداث الحرجة والصعبة أمام خصومة الأيديولوجيين.. فقد كان حاسماً وجريئاً وله مواقف مبدئية وواضحة مُعلنة وغير قابلة للتفسيرات المزدوجة.. سواء مع رفاقه أو خصومة وكان خصماً أيدولوجياً قوياً مع الجميع.

القائد العادل

امتلك ســتالين كقائد عســكري فن القيادة العســكرية الناجحة.. وكقائد وطني القوة والعدالة في آنٍ واحد.. فهو الذي :

- قضى على التمايز الطبقي والاقتصادي – والاجتماعي في المجتمع..
- قضى على البيروقراطية داخل الحزب والسلطة..

وهو الذي نذر نفسه إلى القضية العادلة ألا وهي بناء المجتمع الاشتراكي.

الزاهد

كان مناضـــلاً زاهداً في الدنيا بكل مغرياتها الكبيرة المادية وغير المادية.. بالرغم من كونه زعيم أكبر حزب ودولة في العالم.. واختار المعيشة بشكل متواضع في شقة مكونة من غرفتين عاش فيها مع عائلته مما اضــطر لينين لأن يكلف رئيس حرســه إبرام بيلنيك للبحث لســتالين عن شــقة أخرى أفضــل.. وانتقل ستالين مرغماً هو وعائلته إلى الشقة الجديدة.. وبعد فترة قصيرة خصصت له الحكومة السوفيتية داجة (٢٢) في منطقة زويالوفا وبعد ترميم البيت الصـــيفي انتقل ســـتالين وعائلته إلى البيت الجديد المتواضع في شكله وفي داخله وعاش فيه حتى وفاته في ١٩٥٣/٣/٥.

---

(٢١) التهاب الصّفاق (Peritonitis) هو التهاب حادّ.. وخطير.. ومميت.. يمكن أن يصـيب الأغشـية المعويّة.. ويتطلّب تدخّلا طبّيّا سريعاً.

(٢٢) أى بيت صيفي باللغة الروسية.

الرجل الفولاذي

وفي عام ١٩١٣ تسمّى بالاسم «ستالين» وتعني «الرجل الفولاذي».. ويقال أن فلاديمير لينين[٢٣] هو من أطلق عليه هذا الاسم بعد قيامه بإلقاء قنبلة يدوية على القيصر أثناء عمله في القصر مع مجموعة من العمال كانوا يقومون بعملية طلاء للقصر.. وفي شجاعة يُحسدُ عليها ألقى ستالين القنبلة بين قدمي القيصر.. ثم تابع عمله وكأنه لم يفعل شيئًا.

وسياسياً تميز ستالين بعدة مزايا أساسية:

- شدة تمسكه بمبادئه والإخلاص لها.. ويحكى أنه بعد وصوله لرئاسة الحزب خطب خطبةً قال فيها :

(أيها الرفاق من الآن فصاعداً سأعطي قضية الطبقة العاملة وقضية الثورة البروليتاريا.. والشيوعية العالمية كل ما أملك من قوة.. ومقدرة.. وموهبة.. وحتى لو تطلب ذلك أن أقدم دمي قطرة قطرة).

- الحسم القاطع في كل قراراته السياسية سواء داخل الحزب.. أوالسلطة.. فقد كان ستالين يتميز بالمواقف العلنية والصارمة.. وهذه المواقف الصريحة كانت تكسبه المزيد من الود واحترام الخصوم.. قبل الموالين له من رفاقه في آن واحد.
- رفضه لكافة أشكال المجاملات أو المهادنات في العمل..
- كان يعمل على أن يتابع بنفسه تنفيذ كل ما يتخذه من قرارات حزبية أو سلطوية على أرض الواقع..

(٢٣) فلاديمير لينين.. اسمه الحقيقي (فلاديمير أوليانوف) عمل في بداياته محامياً.. ثم انصرف إلى العمل الثوري.. وعكف على دراسة الماركسية في مدينة سانت بيترسبرج.. بعدها أصبح قائد الحزب البلشفي.. والثورة البلشفية.. أسس المذهب اللينيني رافعاً من خلاله شعار «الأرض والخبز والسلام».. عاش خلال الفترة بين تاريخي (٢٢ أبريل ١٨٧٠ & ٢١ يناير ١٩٢٤) وفي ٧ ديسمبر ١٨٩٥ تم إلقاء القبض عليه وتوقيفه لمدة عام كامل.. بعدها تم نفيه إلى سيبيريا.. وفي إبريل من عام ١٨٩٩ أصدر كتابه «تطور الرأسمالية في روسيا».. ومع نهاية مدة نفيه في سيبيريا عام ١٩٠٠ عاد إلى روسيا.. عمل على إنشاء الصحيفة الاشتراكية «إسكرا» كما عمل على نشر الكتب المتعلقة بالعمل الثوري.. وفي عام ١٩٠٣ تزعم لينين الحزب البلشفي.. وتم اختياره لزعامة حزب العمل الاشتراكي الاجتماعي عام ١٩٠٦ ولدواعي أمنية انتقل للعيش في فنلندا عام ١٩٠٧ ولم يمنعه السفر من الاستمرار في عقد الاجتماعات الاشتراكية في شتّى أنحاء أوروبا.. والترويج والدعوة للفكر الاشتراكي.. وفي ١٦ ابريل ١٩١٧ عاد مرة أخرى إلى روسيا عقب الإطاحة بالقيصر الروسي (نيقولا الثاني) وتبوأ مكانة متميزة بين البلاشفة في روسيا.. ونشر في صحيفة الـ «برافدا» ما= =يُعرف بـ «أطروحة إبريل» التي يشرح من خلالها وجهة نظره في كيفية إدارة روسيا سياسياً.. وبعد الثورة العمالية الفاشلة في يوليو من نفس العام.. اضطر لمغادرة روسيا إلى فنلندا مرة أخرى.. ومن ثم عاود الرجوع في أكتوبر ليقود ثورة مسلحة ضد حكومة «كيرينسكي» المؤقتة.. وقبل وصوله للحكم واجه تهديد الغزو الألماني فلم يجد مناصاً من قبول معاهدة سلام مع الألمان.. إلا أن المفاوضين الروس لم يمتثلوا لأوامره.. وكانت النتيجة أن خسرت روسيا الكثير من أراضيها الغربية.. وفي ٣٠ أغسطس ١٩١٨ وبعد أن انتهى لينين من أحد الاجتماعات وكان في طريقه إلى سيارته.. اقتربت منه امرأة تدعى «فانيا كابلان» ونادته باسمه فلما التفت إليها أطلقت عليه ٣ أعيرة نارية استقرت واحدة في كتفه والثانية في رئته اليمنى.. ولعل أول محاولة للينين لتصدير الاشتراكية الثورية.. كانت عن طريق غزو بولندا بعد أن قامت الأخيرة بغزو أوكرانيا.. وتمثل الفكر اللينيني في تصدير الثورة إلى غرب أوروبا (فرنسا وألمانيا) بالاستعانة بالجيش الأحمر مروراً ببولندا عام ١٩٢٠ وبسبب الثورات المضادة لم تنجح تلك العملية.. وعمل لينين على بعض الإصلاحات الداخلية فشجع الأعمال الزراعية والصناعية الصغيرة إلا أن ثورة البحّارة المدعومة من الإمبريالية في نفس الشهر حالت دون تحقيق أماله في الإصلاح الاقتصادي الداخلي.. ويذكر أن محاولة الاغتيال وهموم إدارة الدولة أخذت نصيبها من صحة لينين فأصيب بجلطة في مايو عام ١٩٢٢ شلّت نصف جسمه الأيمن وقللت من مشاركاته السياسية.. وبحلول شهر ديسمبر من نفس العام.. ألمت به جلطة ثانية.. ورأت الإدارة السياسية أن يبقى لينين بعيداً عن الأضواء.. وفي مارس ١٩٢٣ أصيب بجلطة ثالثة ألزمته الفراش وحرمته القدرة على الكلام.. وبحلول ٢٤ يناير ١٩٢٤ أصيب لينين بجلطة رابعة وكانت القاضية.. من مؤلفاته الأخرى كتاب «تطور الرأسمالية في روسيا» و«الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» و«الدولة والثورة».

مناضل مطيع

كان ستالين كقائد ومناضل رجلاً لا يعرف الكلل أوالملل.. بينما كعضو في الحزب كان مثالاً يُحتذى به في تنفيذ وإطاعة قرارات الحزب.

مطارد من أجل مبادئه الثورية

تعرض ستالين وباستمرار إلى الملاحقات البوليسية.. ثم السجن والنفي من قِبل النظام القيصري.. وخلال الفترة من عام ١٩٠١ وحتى قيام الثورة عام ١٩١٧ تعرض إلى النفي سبعة مرات.. واستطاع أن يهرب من السجن ستة مرات.. وفي فبراير عام ١٩١٧ تم الإفراج عنه.

بين الصحافة والثورة

ساهم مع لينين عام ١٩١٢ في تأسيس جريدة البرافدا.. وبعد عامين فقط أصبح رئيساً لتحريرها.. كما كان أيضاً من أبرز كُتاب جريدة النجمة..

المتنبئ واستشراف المستقبل

كان ستالين يملك القدرة على التنبؤ والتحذير بناءً على تحليلاته السياسية الخاصة.. ولعل من أمثلة ذلك تحذيره من احتمالات حدوث ما يسمى بالثورة المضادة.. وحدد الأسباب والعوامل التي سوف تؤدى إلى ذلك.. وكان يدرك وبشكل مبدئي وعلمي موضوعي مخاطر قوى الثورة المضادة في الداخل وتنسيق نشاطاتها مع الغرب الإمبريالي.

وفي السادس من أكتوبر عام ١٩٥٣ طلب ستالين من كل عضو قيادي في الحزب أن يهيئ من الكادر الشاب ومن العاملين معه ما لا يقل عن ٥ إلى ٦ أعضاء شباب.. وتجهيزهم ليشكلوا فيما بعد الاحتياطي الرئيسي لقيادة الحزب في المستقبل.. ومن أقواله الشهيرة في هذا الشأن مقولته: (الكادر يحسم كل شيء) وهي مقولة هامة وذات بعد فكري وتنظيمي وأيديولوجي.. من أجل تجنب وقوع الأحزاب الشيوعية في أزمة القيادة.. فالتجديد شيء ضروري وحيوي لقيادة الحزب.

ودوماً كان ستالين يؤكد على أهمية دور القيادة والكادر الحزبي العامل في الحزب أو في السلطة التنفيذية والتشريعية فى أن يكون المثال الذي يُحتذى به في تنفيذ خطط وسياسة الحزب ويقول:

(يجب عليكم أن لاتتهاونوا في صراعكم مع الأيديولوجية البرجوازية).

وأشار أيضاً أكثر من مرة إلى أهمية وضرورة تجديد قيادة الحزب بالكادر العلمي السياسي والاقتصادي ومن العلماء والعسكريين الثوريين كما أشار إلى ضرورة تحسين عمل ونشاط الحزب من أعلى هيئة إلى أدنى هيئة حزبية مع الجماهير والتعامل السليم معهم وتحقيق نتائج ملموسة لهم وليس فقط الحديث عن الوعود بالمستقبل.

وطنى حتى النخاع

تحدثت سفيتلانا ابنة ستالين[٢٤] ذات مرة عن علاقتها بأبيها فقالت:

طلبت من أبي وأنا طالبة جامعية أن يخصص لي سيارة خاصة للذهاب بها للجامعة.. فأجابني: هذا مرفوض أصلاً.. لأنكِ لست عضواً في الحكومة.. ولا يمكن أن أخصص لكِ سيارة.. يمكن أن نخصص لكِ حماية داخل الجامعة.. أجابته: لا أريد الحماية داخل الجامعة.. فلا يوجد أي خطر يهددني..

كما تؤكد سفيتلانا بأن أبيها كان وباستمرار يؤكد عليها أن تلبس الملابس المصنعة داخل روسيا.. وليس الملابس الأجنبية.

سبق أن قلنا أنه وخلال الحرب العالمية العظمى وقع ابن ستالين أسيراً لدى القوات الألمانية.. وعندما عرفت القيادة الألمانية بذلك طلبوا من ستالين أن يفرج عن جنرال ألماني مقابل الإفراج عن ابنه الجندي الأسير.. فرد ستالين على هذا الاقتراح قائلاً:

- لايمكنني أن أبادل جنرالاً بجندي..

فهل هناك وطنية أكثر من ذلك؟

من أجل الوطن

انسجاماً مع نظريته «الاشتراكية في بلد واحد» لم يتورع ستالين عن توقيع جميع أشكال الاتفاقيات الدبلوماسية مع القوى الإمبريالية.. وكان مبرره لكل ذلك هو كون روسيا محاصرةً من طرف القوى الإمبريالية.. والضمان الوحيد لاستمرارها وتطورها للأمام هو نشر الثورة على الصعيد الأممي.

وبشكل عام يمكننا القول أن الاشتراكيين جميعهم - وليس ستالين فقط - لا يرفضون توقيع الاتفاقيات مع الدول الرأسمالية.. طالما هذا في صالح دولهم.. وأفكارهم.. لكن يجب دراسة وتقييم كل حالة على حده.. وبالنظر إلى أي مدى سوف تساعد على خدمة قضية العمال على الصعيد الأممي.. فمثلاً دفعت الضرورة الملحة لينين وتروتسكي إلى توقيع اتفاقية «بريست ليتوفسك» سنة ١٩١٨ وكانت هذه الاتفاقية في صالح الإمبريالية الألمانية.. حيث سمحا لها بالاستيلاء على أوكرانيا.

لقد كانت اتفاقية بريست ليتوفسك سنة ١٩١٨ مفروضة على الجمهورية السوفييتية من طرف الألمان.. إذ كان وجودها ذاته على المحك.. لكن وبالرغم من ذلك نظر كل من لينين وتروتسكي إلى مثل هذه المناورات الدبلوماسية باعتبارها مسائل ثانوية أمام الوسيلة الوحيدة للبقاء.. أي نشر الثورة بدءا من ألمانيا.

صاحب الفضل الأول في تأسيس الاتحاد السوفيتى

وهو القائد السياسي الأول الذي ساهم في أول عملية بناء اشتراكي في الاتحاد السوفيتي.. وخلال فترة حكمه لعب دوراً رئيسياً وكبيراً في تشييد الدولة العظمى المكونة من اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية.

---

(٢٤) في مقابلة تليفزيونية خاصة أجرتها الإبنة مع التليفزيون الروسي بتاريخ ٢٤ يناير ٢٠٠١ .

وفي٤ فبراير سنة ١٩٣١ ألقى ستالين كلمة هامة أمام الكونفرس الصناعي لعموم الاتحاد السوفيتي فقال:

(إننا متخلفون عن البلدان المتقدمة لمدة تتراوح مابين ٥٠ إلى ١٠٠ سنة.. ويجب علينا أن نختصر هذه الفترة الزمنية إلى ١٠ سنوات من أجل اللحاق بالدول المتقدمة.. فإما نعمل ذلك ونصبح دولة عظمى.. أو يتم سحقنا).

أثر ستالين في تغيير الاتحاد السوفييتي

تعددت تأثيرات ستالين في كيان الاتحاد السوفيتي على كل المستويات.. وجميع قراراته كانت ذات صبغة شيوعية.. مادية.. بحتة.. ولا غرابة في ذلك.. فقد كان متسقاً تمام الاتساق مع ما يعتنقه من مبادئ..

وعلى سبيل المثال ففي عام ١٩٤٦ التقى ستالين بالعلماء الاقتصاديين والسياسيين السوفيت.. وأكد لهم على أهمية وضرورة وضع خطة جديدة لتطوير البلاد ومناقشة كل المشاكل والصعوبات التي تواجه عملية البناء الاشتراكي.. كما أكد على ضرورة تطوير وإغناء النظرية الماركسية ـــ اللينينية.. وكذلك أكد على ضرورة تنشيط وتفعيل دور ومكانة الأدباء والفنانين والموسيقيين في تطوير الثقافة الاشتراكية وأكد على أهمية وضع برنامج جديد للحزب الشيوعي السوفيتي من أجل تعزيز وتطوير مسيرة البناء الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي.. والعمل المستمر على رفع المستوى المعيشي والروحي للجماهير.. وقال بالنص:

(وعلينا جميعا ألا نكتفي بالحديث فقط عن مفهوم عدالة الاشتراكية بالرغم من أهميتها.. فلقد حان الوقت لتعجيل وترسيخ البناء الاشتراكي بشكل أفضل ومتقن وقائم على التكنولوجيا الحديثة.. كما يجب علينا أن ندرس ونعرف وبشكل علمي لا بشكل عاطفي.. القوانين الاقتصادية الاشتراكية والعمل على الإبداع في تطبيقها من أجل تحسين المستوى المعيشي للجماهير وعلى العلماء الاقتصاديين والسياسيين أن يقوموا بتلك المهمة الرئيسية).

دينياً..

استبدل ستالين الانتماء الديني للشعب الروسي بالانتماء الشيوعي.. ورغم كونه درس في بداياته بمدرسة أرثوذكسية.. وهى بالطبع مؤسسة تعليمية قائمة على التنشئة الدينية.. إلا أنه عندما تولى الحكم أمر بحرق جميع الأيقونات المسيحية في البيوت.. وهدم الكنائس.. ودور العبادة.

صناعياً..

بالرغم من المصاعب التي واجهها ستالين في تطبيق الخطة الخمسية للنهوض بالاتحاد السوفيتي.. إلا أن الإنجازات الصناعية أخذت بالنمو بالرغم من قلة البنية التحتية الصناعية[٢٥] ولعشرين عاماً متواصلة تمكّن ستالين من توفير السيولة اللازمة لتمويل مشاريعه الطموحة عن طريق التضييق على المواطن السوفيتي في المواد الغذائية.

---

(٢٥) «البنية التحتية» مصطلح يطلق على المنشئات والخدمات والتجهيزات الأساسية التي يحتاجها المجتمع مثل: وسائل المواصلات.. الطرق.. والمطارات.. والسكك الحديدية.. ووسائل الاتصالات كشبكة الهاتف.. والجوال والإنترنت.. والبريد بالإضافة لنظام الصرف الصحي وتمديدات المياه.

الزراعة التعاونية..

فرض ستالين على الاتحاد السوفيتي نظرية الزراعة التعاونية.. وتقوم النظرية على استبدال الحقول الزراعية البدائية التي تعتمد على الناس والحيوانات في حرث وزراعة الأرض.. بحقول زراعية ذات تجهيزات حديثة كالجرّارات.. والمعدات الميكانيكية وخلافه.. وكانت الحقول الزراعية في الاتحاد السوفيتي في عهد ستالين من النوع البدائي.. نظرياً من المفترض أن يكون الرابح الأول من الزراعة التعاونية هو الفلاح.. الذى وعدته الحكومة بمردود يساوي مقدار الجهد الذى يبذله في أرضه.. أمّا بالنسبة للإقطاعيين.. فكان هلاكهم على يد الزراعة التعاونية.. وكان يفترض بالإقطاعيين بيع غلاتهم الزراعية إلى الحكومة بسعر تحدده الحكومة نفسها.. ولكن الزراعة التعاونية لاقت معارضةً شديدة من قِبل الإقطاعيين والفلاحين.. ووصلت المعارضة إلى حد المواجهات العنيفة بين السلطة والفلاحين.

الرأسماليون الطفيليون

قام ستالين بتوجيه أصابع الاتهام إلى الفلاحين الذين يملكون حقول زراعية ذات الحجم المتوسط.. ونعتهم «بالرأسماليين[٢٦] الطفيليين» وأنهم سبب شحّ الموارد الغذائية.. وأمر بإطلاق النار على كل من يرفض الانضمام إلى برنامجه الزراعي أو النفي إلى مناطق بعيدة في الاتحاد السوفيتي.

نتائج محزنة

ولعل المحزن في عملية الشد والجذب بين الحكومة والفلاحين فيما يتعلق بالبرنامج الزراعي التعاوني هو ما أدى إليه من نتائج.. فقد أجمع كثيرٌ من المؤرّخين أن سبب المجاعة التي ألمّت بالاتحاد السوفييتي خلال عامي ١٩٣٢ و١٩٣٣ هو نحر الفلاحين لماشيتهم والتي راح ضحيّتها ما يقرب من خمسة ملايين رأس ماشية في وقت كان فيه الاتحاد السوفيتي يصدّر ملايين الأطنان من الحبوب لشتّى أنحاء العالم!

اجتماعياً

واجه ستالين صعوبة كبيرة في إدارة مجتمعه.. ويرجع هذا لكون المجتمع السوفيتي كان متعدد القوميات والأديان.. ويرجع أيضاً لمساحة البلاد الشاسعة.. مع عدد السكان الكبير جداً..

وكل ذلك وضع ستالين أمام خيارين لا ثالث لهما:

- إما تنفيذ إرادته بأى وسيلة..
- أو التنحي والاستسلام أمام تلك التحديات..

وبالطبع اختار ستالين تنفيذ خياره الأول.. ونفذ إرادته بقبضة حديدية.. مما كان لها بالغ الأثر على الاتحاد السوفيتي والحكام من بعده.. وأصبح كل هم حكومة ستالين هو التركيز على تغيير ذلك المجتمع

(٢٦) رأسمالية الدولة بالنسبة للماركسيين.. والاقتصاديين.. هي طريقة لوصف المجتمع الذي تكون فيه القوى المنتجة مملوكة وتُدارة من قبل الدولة بشكل رأسمالي.. وتعرف الرأسمالية على أنها: نظام اجتماعي يجمع بين الرأسمالية.. ونظام الأجور الذي ينتج ويوزع القيمة الفائضة.. أو التحكم من قبل جهاز الدولة.. وبناءً على هذا التعريف فالبلد الذي تحكمه رأسمالية الدولة هي تلك التي تتحكم فيه الحكومة بالاقتصاد و تتصرف كشركة كبرى.. وهناك نظريات وانتقادات مختلفة لرأسمالية الدولة.. بعضها كان موجوداً أثناء ثورة أكتوبر .. أو حتى قبل ذلك.. العوامل المشتركة فيما بينها هي أن العمال لا يتحكمون فى وسائل الإنتاج بأنفسهم.. وأن علاقات السلع والإنتاج لا تزال توجد في رأسمالية الدولة.

المليء بالعادات والتقاليد الدينية النابعة من مختلف الطوائف التى كان يطلق عليها «الخرافات الدينية».. إلى الشق المادي القائم في أساسه على الإلحاد.

تصادم النظرية والتطبيق

كان من المحتم تحويل المجتمع من مجتمع زراعي بحت.. إلى صناعي عمالي.. خدمة للنظرية الشيوعية التى كان أحد أشهر.. وأهم شعاراتها « يا عمال العالم اتحدوا» هذه النظرية كانت تصطدم بمصالح الإقطاع والبرجوازية المتحالفة مع المشرعين الدينيين -رجال الدين- حيث كان من أهم إنجازات الشيوعية التحليل العلمي للأحداث ومنح حقوق للعمال كتخفيض عدد الساعات.. والحوافز.. وغيرها.. وأصبحت هذه التغييرات قدوة للعمال على مستوى العالم.. كل ذلك كان من مساوئ التركيز على تطوير المدن على حساب الريف.. مما أدى إلى مزيد من التدهور الاقتصادي في الريف..

وعليه يعتبر ستالين أحد أهم القادة الروس الذين ساهموا في الإعداد لثورة أكتوبر عام ١٩١٧ من أجل الإطاحة بالحكم القيصري.. وقدا أوكل لينين مهام رئيسية إلى ستالين بخصوص هذا الحدث التاريخي الهام الذي وقع في بداية القرن العشرين.

ستالين.. والصعود إلى السلطة

تقلّد ستالين منصب المفوّض السياسي للجيش الروسي في فترة الحرب الأهلية الروسية[٢٧] وفي فترة الحرب الروسية البولندية[٢٨] وتقلّد أرفع المناصب في الحزب الشيوعي الحاكم والدوائر المتعددة التابعة للحزب.

وفي عام ١٩٢٢ تقلّد ستالين منصب الأمين العام للحزب الشيوعي وحرص ستالين على أن يتمتع منصب الأمين العام بأوسع أشكال النفوذ والسيطرة.

الحكومة الثلاثية

بعد وفاة فلاديمير لينين في يناير ١٩٢٤ تألّفت حكومة ثلاثية لحكم البلاد وتكونت من:

- ستالين..
- كامينيف..
- زينوفيف.

---

(٢٧) الحرب الأهلية الروسية هي مجموعة الأحداث التي قسمت روسيا لمدة ثلاث سنوات.. من بداية ١٩١٨ إلى نهاية ١٩٢١ وهي امتداد لثورة أكتوبر ١٩١٧ واستمرت إلى إعلان السياسة الاقتصادية الجديدة.. الحرب الأهلية الروسية لم تكن مواجهة بين الثوار البلاشفة و«الروس البيض» الذين ينادون بعودة النظام القيصري السابق فحسب.. ومدى حدة الدمار الذي خلفته لم يكن فقط بسبب بطش القيادات «البيضاء» أو «الحمراء» وفقط.. فهذه الحرب كانت قبل كل شيء فوضى شديدة وحادة.. حيث تحللت السلطة..وتفكك المجتمع الروسي تحت ضغط عدة قوى متعارضة إلى أن أعيد توحيدهم تحت القبضة البلشفية المنتصرة.. وشهدت الحرب فعلياً عدة مجموعات ثورية (منشفيك.. اشتراكيين ثوريين.. لاسلطويين) تتقاتل أيضاً ضد البلاشفة.. أحياناً بصفة فردية وأحياناً بالتحالف مع الجنرالات البيض.. وزادت محاولات تحرر الأقليات الوطنية.. وعمليات قرويو «الجيوش الخضراء» (المعادين للبلاشفة والبيض) والدفاع عن مشاريع اجتماعية وسياسية مناهضة.. والتدخلات الأجنبية من حدة الصراع.. ومن ثم كثرت الانقلابات..والانشقاقات الداخلية.. وتغيرت المواقف.

(٢٨) الحرب الروسية البولندية (١٦٥٤–١٦٦٧) تعرف أيضاً باسم حرب الثلاثة عشر سنة هي حرب وقعت ما بين روسيا القيصرية والكومنولث البولندي اللتواني.. ما بين ١٦٥٥ و١٦٦٠ ووقعت حرب الشمال الثانية في الكومنولث البولندي اللتواني.. المدن التى شهدت تلك المعارك موجودة الآن في بولندا.. وانتهت الحرب بانتصار روسيا وبذلك تغيرت الحدود قليلاً بفعل استيلاء الروس على بعض الأراضي وظهور روسيا كقوة عظمى في أوروبا الشرقية.

وفي فترة الحكومة الثلاثية نبذ ستالين فكرة الثورة العالمية الشيوعية لصالح الاشتراكية المحلية[٢٩].. مما ناقض بفعلته مبادئ «تروتسكي» المنادية بالشيوعية العالمية.. لكن في النهاية تغلب ستالين على الثنائي كامينيف.. وزينوفيف بمساعدة التيار الأيمن للحزب المتجسد في بوخارن وريكوف[٣٠] ونجحوا في النهاية عام ١٩٢٧ في طرد تروتسكي.. ثم زينوفيف وكامينيف من اللجنة المركزية.. ثم من الحزب الشيوعي كله.

القائد الأوحد

وبعدها بشهور سعى ستالين إلى إضعاف نفوذ بوخارن.. واستطاع بالفعل إزاحته من القيادة حتى أصبح هو القائد الأوحد.. وتم ذلك بين عامي١٩٢٨-١٩٢٩. وهي ما تعرف بحركة التطهيرات .

إلا أن ستالين لم يبلغ السلطة المطلقة إلا بعد التصفيات الجسدية التي قام بها في الثلاثينات.

ستالين المفكر بين النقد والتميز

يصف الفيلسوف الماركسي المجري جورج لوكاش[٣١] مؤلفات ستالين بأنها عبارة عن ماركسية زائفة.. وعلى حد تعبيره اتسمت بالجمود.. والأحكام القاطعة.. وعدم إثارة التفكير والخيال.. بالرغم من أنها عالجت القضايا الجديدة حول الإمبريالية والاستعمار التي ظهرت بعد وفاة ماركس وإنجلز.

فالجمود الذي ساد الماركسية في البداية كان أكثر من الجانب الفكري الثقافي العميق.

ويقول أن مؤلفات ستالين كان لها أثر سلبي فيما يختص بتناول تطور الحركة الوطنية من خلال الأحكام الجامدة حول المثقفين والبورجوازية الوطنية في بلدان المستعمرات وكان لها أثرها الخاص هناك..

بينما يرى مفكرون وكتابٌ آخرون أن ما كتبه ستالين يعتبر عصارة التجربة الشيوعية في معناها التطبيقي..

وبين الرأيين نقول أنه كان يستطيع أن يعبر وبدقة كاملة عن كل أفكاره بشكل صريح وواضح.. وأن كل مؤلفاته.. ومقالاته.. وخطبه كان يكتبها هو بنفسه.. وفي كل الأوقات خلق ستالين لدى الجميع انطباعاً كان دوماً في صالحه كرجل صاحب مواقف.. وأفكار.. ونعود لنؤكد أن أبواب البحث العلمي ما تزال مفتوحة لإعادة تقييم مؤلفاته.. وإعطائها حقها من الدراسة والبحث.. وفي السطور التالية نرصد المعروف والمترجم منها..

---

(٢٩) الاشتراكية المحلية: هي تطبيق النظام الاشتراكي في بلد معين ومن ثمّة توسيع قاعدة التطبيق إلى الشيوعية.
(٣٠) تعريف كامل بالشخصية ودورها في التجربة الستالينية في فصل رجال حول ستالين.
(٣١) جورج لوكاش (١٨٨٥-١٩٧١) فيلسوف وكاتب وناقد أدبي مجري ماركسي ولد في بودابست عاصمة المجر.. يعده معظم الدارسين مؤسس الماركسية الغربية (في مقابل فلسفة الاتحاد السوفيتي) أسهم بأفكاره في إرساء مبادئ الفلسفة والنظرية الماركسية.. وكان نقده الأدبي مؤثرا في «الواقعية» وفي الرواية باعتبارها نوعاً أدبياً.. خدم لفترة وجيزة كوزير للثقافة بعد ثورة ١٩٥٦ وقضى لوكاش وقتاً طويلاً في ألمانيا.. كتاباه «الروح والجسد» و«نظرية الرواية» نشرا في ١٩١٠ و١٩١٦ على التوالي.. انضم العديد من القادة إلى لوكاش في تحوله المفاجئ إلى الحزب الشيوعي.. وقد حاول لوكاش في كتاباته تجديد الفكر الماركسي وإلقاء الضوء على جوانبه الثورية خصوصاً البعد الجدلي منه.. وكان يبدو وكأنه يسبح عكس التيار بالنسبة للماركسية التقليدية.. إلا أنه يعتبر أحد واضعي حجر الزاوية في علم الجمال الماركسي.. ولا يمكن إنكار ما قدمه لوكاش للفكر السياسي من إضافات وعناصر جديدة.. فهويعد بالنسبة لخصومه أومؤيديه أهم مفكر ماركسي منذ ماركس.. لا بل يعتبره البعض أهم فيلسوف في النصف الأول من القرن العشرين.. ومن بين مؤلفاته المترجمة إلى العربية: توماس مان.. تحطيم العقل..جوته وعصره.. دراسات في الواقعية.. وغيرها.

مؤلفات ستالين:

- حول الماركسية في علم اللغة .
- المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية.
- أسس اللينينية .

ستالين في سطور:

- ساهم مساهماتٍ نظرية عديدة في تفسير النظرية الماركسية اللينينية..
- صاحب دور كبير في تطوير الاقتصاد الاشتراكي..
- صاحب الفضل الأكبر في تعزيز دور ومكانة الاتحاد السوفيتي محلياً وعالمياً..
- أبرز سماته إيمانه الكبير بالأممية البروليتارية(٣٢)..
- نضاله الكبير ضد التيارات التحريفية والانتهازية والوصولية داخل الحزب..
- عمله الدائم.. والمستمر من أجل (تنظيف) الحزب من العناصر المتطفلة.. والدخيلة عليه..
- ثباته النضالى ضد خصومه الأيديولوجيين..
- محاربته الدائمة لكل أنواع الاستغلال والظلم والفقر والجوع..
- قدرته على اكتساب علاقات جيدة مع الآخرين خاصةً العلماء.. والباحثين.. والسياسيين.. والاقتصاديين.. والفنانين.. وكان باستمرار يصغي وباهتمام إلى آراء هؤلاء العلماء.. ويقدم لهم دوماً الدعم المادي والمعنوي من أجل مهامهم التي يحتاجها المجتمع والاقتصاد الاشتراكي.
- كان مثالاً حياً ويحتذي به من حيث الالتزام.. وكان يحرص على أن يكون دوماً أى قرار يتخذه لصالح الحزب والمجتمع.

ستالين تواريخ وأرقام:

- وُلِدَ ستالين ١٨٧٩..
- انتمى إلى للحزب في عام ١٨٩٨..
- عام ١٩١٢ أصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي..
- عام ١٩١٣ أصبح عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الروسي..
- عام ١٩٢٢ أصبح عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي..
- عام ١٩٢٤ أصبح سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي..

---

(٣٢) البروليتاريا (Proletariat) هو مصطلح ظهر في القرن التاسع عشر ضمن كتاب بيان الحزب= =الشيوعي لكارل ماركس وفريدريك إنجلز يشير فيه إلى الطبقة التي ستتولد بعد تحول اقتصاد العالم من اقتصاد تنافسي إلى اقتصاد احتكاري.. ويقصد ماركس بالبروليتاريا كونها الطبقة التي لا تملك أي وسائل إنتاج.. وتعيش من بيع مجهودها العضلي أو الفكري.. ويرى ماركس أن الصراع التنافسي في ظل الرأسمالية.. سيتولد عنه سقوط للعديد من الشركات واندماج شركات أخرى.. حيث أنها في النهاية تتحول إلى شركات كوسموبوليتية أي لاقومية وتصبح شركات احتكارية.. ويصبح نضال شعوب الأرض موحداً لعدو واحد.. وتسمى هذه الطبقة الناشئة عن الاحتكارات العالمية بطبقة البروليتاريا.. وهي تبيع عملها الفكري.. والثقافي.. والعضلي ولا تملك أي وسائل إنتاج.. ويعتبر ماركس البروليتاريا هي الطبقة التي ستحرر المجتمع وتبني الاشتراكية بشكل أممي.

- خلال الفترة من عام ١٩١٧ وحتى عام ١٩٢٢ كان مسؤول لجنة العلاقات القومية.. ومسؤول لجنة الرقابة العمالية الزراعية في الحزب وغيرها من اللجان المهمة.
- عام ١٩٣٩ حصل على لقب بطل العمل الاشتراكي..
- عام ١٩٤٣ حصل على رتبة مارشال في الجيش السوفيتي..
- عام ١٩٤٥ حصل على لقب بطل الاتحاد السوفيتي.. والقائد العام للقوات المسلحة السوفيتية..
- خلال الفترة من عام ١٩٢٢ وحتى عام ١٩٥٣ أصبح القائد الفعلي للحزب والسلطة السوفيتية.

٢.مذابح ستالين.. والثورة المضادة

لكل ثورة أعداءها في الداخل والخارج.. وفي روسـيا قامت قوى الثورة المضـادة خلال الفترة من عام ١٩١٧ وحتى عام ١٩٥٣ بالكفاح المسلح ضد السلطة السوفيتية بشكل عام.. وضد ستالين بعد تقلده للسلطة بشـكل خاص.. كل ذلك بهدف تقويض الاشـتراكية والسـلطة السـوفيتية.. وتزعم تلك الحملات ما يسـمون بالبرجوازيين.

الإمبريالية وراءهم

وتعتبر الإمبريالية العالمية بقيادة الإمبريالية الأمريكية[٣٣] أهم أعداء ثورة أكتوبر الاشـتراكية منذ قيامها فـي عام ١٩١٧ واستخدمت الإمبريالية الأمريكية وحلفاؤها كل وسائل الضغوطات السياسية والاقتصادية والعسكرية بما فيها الحصار الاقتصادي.. وهـي كانت وراء إشعال الحرب الأهلية في الاتحاد السـوفيتي التي ذهب ضـحيتها أكثر من (٨) مليون إنسـان.. وهي التي كانت وراء الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة.. وكان الهدف الرئيسي للإمبريالية العالمية هو القضاء علـى الاتحاد السوفيتي وعلى الاشتراكية ومنجزاتها.

واستمرت قوى الثورة المضادة فـي مقاومة السلطة السوفيتية حتى نهاية الخمسينيات وخاصة في(أوكرانيا ـ الفوف) وبعض المناطق الأخرى إلا أن هذه القوى فشلت فـي إقناع وكسب تأييد الشعب السـوفيتي.. والالتفاف حول شـعارات الثورة الأسـاسـية.. بل على العكس فإن الشـعب السـوفيتي أيدَ.. وساندَ الحزب الشيوعي السوفيتي بقيادة ستالين.. ومـن خلال هذه المساندة والتأييد تم القضاء على عناصر قـوى الثورة المضادة.. وتم إلحاق الهزيمة الكبرى بكل من كان يروج للمذاهب الأخرى من فاشية.. أو نازية.. أو إمبريالية في البلاد.. ومن ثم تم تحرير كامـل أراضي الاتحاد السوفيتي.. ودول أوربا الشرقية عقب انتهاء أحداث الحرب العالمية الثانية.

وكان ستالين حاسماً من البداية في مجابهة قوى الثورة المضادة داخل الاتحاد السوفيتي فهو كما قلنا لم يكن يعرف المجاملة.. أو المهادنة فيما يتـعلق باستقرار بلاده.

إما نحن.. أو هم

وكان يدرك وبشـكل جيد أنه داخل في صـراع أيديولوجي واقتصـادي مع هذه القوى.. فإما بقاء السلطة السوفيتية والاشتراكية.. أو انهيارها بالكامل.

تشويه ستالين وتجربته

واستخدمت قـوى الثورة المضادة كل الإمكانات المتاحة لها من سلطة.. ورأس مال.. وكل وسائل الإعلام المختلفة من أجل تشويه دور ستالين.. والاشتراكية ومنجزاتها.. كل ذلك كان له أهدافه

---

[٣٣]) حالياً أصبح قادة ما عُرِفَ فيما بعد بالبيريسترويكا و(الإصلاح الاقتصادي) وفى مقدمتهم جورباتشوف ويلتسين وبوتين أصدقاء حميمين للدول الإمبريالية.. وهؤلاء «القادة» أخذوا يركضون بسرعة غير عادية نحو الغرب الإمبريالي وخاصة نحو أمريكا من أجل الحصـول والاعتراف بهم على أنهم دول اقتصـاد السـوق الرأسـمالي و(النضـال) من أجل قبولهم في) وغيرها من المنظمات الدولية الأخرى.. وفي حالة اسـتمرار هذه السـياسـة فلا يسـتبعد G-٧النادي الدولي (تفكك روسيا إلى دويلات صغيرة مستقلة.. بعد أن تفكك بالأمس الكيان الأم.. وفق سيناريو البيريسترويكا. .

السياسية والأيديولوجية.. وفى أغلب الأحيان الشخصية.. من أجل تشويه سمعة ستالين ومنجزاته السياسية.. والإقتصادية.. والاجتماعيـــة.. والعسكرية.. وكما قلنا كان يقف وراء هذه الحملة عناصر روسية خاصةً من البرجوازيين.. وغير روسية ممن لهم مصالح مضادة للنظام.. وكانت أدواتهم لذلك تتمثل في:

- السلطة..
- المال..
- الإعلام..

وفي المقابل كان ستالين محاوراً سياسياً ذكياً.. وبارعاً.. حاسماً في اتخاذ القرارات.. وتنفيذها في الوقت المناسب.. ويتضح هذا جلياً من موقفٍ ما حدث بينه.. وبين عضو المكتب السياسي ووزير خارجيته مولوتوف (٣٤) الحوار ككل يدور في ثلاث محاور نأخذها بالترتيب لنتبين مقدرة ستالين على الإقناع.. وكشفه لمخططات.. وأحابيل قوى الثورة المضادة من برجوازية وغيرها لاختراق صفوف المجتمع والدولة الروسيين:

كان مولوتوف قد أعطى موافقة للسفير البريطاني في موسكو على إصدار جريدة ومجلة برجوازية في الاتحاد السوفيتي دون الرجوع لستالين.. ولما علم ستالين بالأمر سأل مولوتوف:

- ما هو الهدف من ذلك؟

رد مولوتوف:

- لن يضرنا الأمر في شيء.. وهى وسيلة ترضية لبريطانيا.. ليس إلا..

وكان ستالين أبعد نظراً من وزير خارجيته فرد عليه قائلاً:

هذا النوع من الصحافة لن يجلب للشعب السوفيتي إلا الضرر والمشاكل.. وهذه خطوة سياسية خاطئة قمت بها أيها الرفيق.

القرم.. واليهود

مرة أخرى قدم مولوتوف اقتراحاً لقيادة الحزب بضرورة تسليم منطقة القرم لليهود..

فأجابه ستالين :

- هذا خطأً كبيراً أيها الرفيق.. فاليهود لديهم منطقة حكـــم ذاتي خاصة بهم.. ألا يكفي ذلك؟ دعهم يطورون منطقتهم.. نحن لن نســمح لك أن تكون محامي دفاع عن اليهود.. وهذا الخطأ الثاني الذى ترتكبه أيها الرفيق.. إن تصرفكم وسلوككم غير مرضي بالنسبة لنا.. وأنت بصفتك عضواً فــي المكتب السياسي نحن نرفض هذه المقترحات وهذه التصرفات.

لصالح من تعمل زوجتكم؟

ولثالث مرة تتعدد أخطاء مولوتوف.. ويعرف ســتالين أمراً غاية في الخطورة يتعلق بمولوتوف.. فيستدعيه ويقول له:

---

(٣٤) تعريف كامل بهذه الشخصية ودورها في التجربة الستالينية في فصل رجال حول ستالين.

- إن قرارات المكتب السياسي في الحزب تقولها أنت لزوجتكم أولاً.. بأول.. وهي تتحدث عن هذه القرارات لأصدقائها المحيطين بها من اليهود القوميين الذين لا يمكن منحهم الثقة مثل سفيرة إسرائيل جولدامائير[٣٥] وهذا السلوك غير مرضٍ وغير مسموح أصلاً.

مولوتوف يعترف بالخطأ

وعندما اعترف مولوتوف بأخطائه في أحد اجتماعات المكتب السياسي للحزب.. خاطب ستالين قائلاً:

- سأكون تلميذكم الوفي..

فأجابه ستالين:

- هذا هراء.. ليس لدينا تلاميذ.. نحن جميعاً تلاميذ لينين العظيم.

احتمالات الردة

في الخامس والعشرين من يونيو عام ١٩٢٥ التقى ستالين بطلبة جامعة سفرلدلوفسكيا السوفيتية.. وسأله أحد الطلبة:

هل هناك إمكانية للارتداد في الاتحاد السوفيتي في ظروف مايسمى بالاستقرار المؤقت في النظام الرأسمالي العالمي؟

فأجاب ستالين قائلاً:

هناك ثلاث مخاطر جدية تواجه حالياً السلطة السوفيتية وهي :

- **الخطر الأولى:** هو خطر ضياع المستقبل الاشتراكي وقضية بناء وطننا وبالتالي خطر وجود تصفية يكون المقصود منها القضاء على الاتحاد السوفيتي.
- **الخطر الثاني:** يتمثل في خطر ضياع المستقبل الثوري على النطاق العالمي وبالتالي مواجهة خطر النعرات القومية.
- **الخطر الثالث:** يكمن هذا الخطر في ضياع القيادة الحزبية بحيث يمكن أن ينبع من ذلك خطر تحول الحزب إلى ملحق لجهاز الدولة.

---

(٣٥) جولدا مائير (٣ مايو ١٨٩٨ - ٨ ديسمبر ١٩٧٨م) هى رابع رئيس وزراء للحكومة الإسرائيلية بين ١٧ مارس ١٩٦٩ حتى ١٩٧٤ وُلدت في مدينة كييف بأوكرانيا.. ثم هاجرت مع عائلتها إلى مدينة ميلواكي في ولاية ويسكونسن الأمريكية عام ١٩٠٦ وتخرجت من كلّية المعلمين.. وقامت بالعمل في سلك التدريس.. ثم انضمّت إلى منظمة العمل الصهيونية في عام ١٩١٥ ومن ثم قامت بالهجرة= =مرّة أخري ولكن هذه المرّة إلى فلسطين وبصحبة زوجها موريس مايرسون في عام ١٩٢١ ولمّا مات زوجها عام ١٩٥١ قررت جولدا تبني اسم عبري فترجمت اسم زوجها إلى العبرية بالفعل يعني اسم مايرسون «ابن مائير» باللغة البيديشية وقررت جولدا اختصاره إلى مائير فقط.. انتقلت جولدا إلى مدينة تل أبيب في عام ١٩٢٤وعملت في مختلف المهن بين اتّحاد التجارة ومكتب الخدمة المدنية قبل أن يتمّ انتخابها في الكنيست الإسرائيلي في عام ١٩٤٩ عملت جولدا كوزيرة للعمل في الفترة ١٩٤٩ إلى ١٩٥٦م وكوزيرة للخارجية في الفترة ١٩٥٦ إلى ١٩٦٦م في أكثر من تشكيل حكومي.. وبعد وفاة رئيس الوزراء الإسرائيلي ليفي أشكول في فبراير ١٩٦٩ تقلّدت جولدا منصب رئيس الوزراء وقد تعرّضت حكومة التآلف التي ترأستها للنّزاعات الداخلية وأثارت الجدل والتساؤلات في مقدرة حكومتها على القيادة خاصّة بعد الهجوم العربي المباغت وغير المُتوقّع في حرب أكتوبر.. والذي أخذ الإسرائيليين على حين غرّة في ٦ أكتوبر ١٩٧٣م تعرّضت جولدا مائير لضغوط داخلية نتيجة الأحداث التي سلفت فقامت بتقديم استقالتها وعقبها في رئاسة الوزراء إسحاق رابين.. توفيت جولدا مائير في٨ ديسمبر ١٩٧٨م ودفنت في مدينة القدس.

ستالين يحذر

وفي مايو عـام ١٩٤١ وقف ستالين خطيباً في أحد اجتماعات الحزب وهو يقول بلهجةٍ محذرة:

إن المهمة الرئيسية لأعداء الشعب السوفيتـــي هي إسقاط النظام السوفيتي.. وإقامة الرأسمالية.. وسلطة البرجوازية في الاتحاد السوفيتي.. من خلال ذلك فسوف تتحول البلاد إلى ملحقاً للغرب.. وبلداً مُصدِراً لمواد الخام الأولية.. وأن الشعب السوفيتي سيتحول إلى عبيد للإمبريالية العالمية.

وأهم ما يخطط له أعداء الشـعب السـوفيتي يكمن بالدرجة الأولى في تقويض القـــوة الاقتصـادية والعسكرية للاتحاد السوفيتي والتهيئة العسكرية من أجل إلحاق الهزيمة العسكرية بالاتحاد السوفيتي.. والاستيلاء على السلطة.. وإقامة نظام بونابارتي فـــي البلاد بالاستناد علـــى القوة العسكرية.. وعلى العناصر من الأوباش والمجرمين والمنسلخين من طبقتهم والذين يمثلون قـوى الثورة المضادة.

هؤلاء الحقراء والسفلة والخونة والأذلاء عازمون قبل كل شيء على التخلي عن الملكية الاشتراكية وبيعها وتحويل الملكية العامة لوسائل الإنتاج إلى ملكية خاصـة رأسمالية على اعتبارها عنصـرا هاما في العلاقات الاقتصادية للاقتصاد الوطني.. وتحت حجة غيـاب الجدوى الاقتصادية سوف يتم تصفيـة السـفخوزات [٣٦] وحل الكلخوزات [٣٧] وسـوف يتم بيع الماكينات والآلات الزراعية إلى شـركائهم في الرأي أو ما يسمون بالمزارعين من أجل انبعاث (ظهور) نظام الكولاك في الريف السوفيتي وإخضاع البلاد للأجانب عن طريق الحصـول على القروض وإعطاء منح وامتيازات هامة للدول الإمبريالية من أجل الاسـتحواذ على مشـاريعنا الصـناعية وإعادة منطقة سـاخالين النفطية إلى اليابان وأوكرانيا إلى ألمانيا.

إن أعداء شعبنا يطمحون وبكل قواهم لتقويض القـدرة القتالية العسكرية للقوات السوفيتية. لقد حذرنا القائد لينين العظيم إلى أن الثورة لا يمكن لها أن تبقى وتستمر إلا إذا تمكنت مــــن الدفاع عن نفسـها.. وأن القلعة غير المحصنة وغير الراسخة يمكن بسهولة الاستحواذ عليها من الداخل.

كيف تعامل ستالين مع الثورة المضادة؟

وبوصـول سـتالين للسلطة في عام ١٩٢٩ عمل على إبادة المتعاملين مع ما تبقى من أعدائه من بين أعضاء اللجنة المركزية البلشفية[٣٨] وأعقبها إبادة كل من يعتنق فكر مغاير لفكره الحزبي.. أو حتى من يشـك في كونه معارضـاً للشـيوعية.. والتطبيق الصـارم للاشـتراكية.. وكانت التهمة الثابتة دوماً على الجميع لا تخرج عن الآتى:

- إمّا تعاونهم مع القوات النازية الغازية..
- أو معاداتهم للمبادئ السوفيتية..
- أو تعاملهم مع ما سُمِيَّ بالثورة البيضاء المضادة..

---

(٣٦) مزارع الدولة

(٣٧) التعاونيات الزراعية

(٣٨) البلشفية.. أو البلاشفة.. أو البلشفيك.. في الأصل كلمة روسية تعني الكثرة أو الأكثرية.. وقد أطلقت جماعة الجناح اليساري من أنصـار لينين.. في حزب العمل الاشـتراكي الديمقراطي الروسـي هذا التعبير على نفسـها عام ١٩٠٣ وكانوا يشـكلون الأكـثـريـة فـي الـحـزب.. بـيـنـمـا سـمـي الأقـلـيـة الـبـقـيـة = = بـــ (المونشفيك).. وكانت الأكثرية تسعى للحل الثوري.. بينما كانت الأقلية تسعى للتغيير السلمي.. وإلى جانب هذا كون البلاشـــفة جيش يســـمى بالجيش الأحمر الذي خاض حروب أهلية مع الجيش الأبيض.. وهذا الأخير الذي كان مدعماً من الغرب (بريطانيا ـ فرنسا) وكانت الغلبة للبلاشفة.. حينها سيطر على الحكم في روسيا في ظل الحكم الاشتراكي.. وقد ظلت تلك الجماعة تعرف بهذا الاسم حتى بعد نجاح ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ التي عرفت باسم الثورة البلشفية.

- أو حتى طالهم الشك في تعاونهم مع قوى خارجية مناهضة للاشتراكية..

ولكن السبب الحقيقي هو سعي ستالين لخلق توازن عرقي حتى يبتعد الشعب عن النزعات القومية للسلافيين.. ولكي يتسنّى له إيجاد توازن إثني في الجمهوريات.

بين النفى.. والسجن.. والتصفية الجسدية

وتفاوتت الأحكام الصـــادرة لمعارضـــي ســـتالين فتارة ينفي العملاء والخونة للخارج فيما يعرف بالترحيل القسري.. وتذكر بعض المصادر أن ستالين قام بترحيل مليون ونصف المليون سوفيتي إلى «سيبيريا» وجمهوريات آسيا الوسطى.. خلال فترة حكمه..

والأقل حظاً كان يقذف بهم إلى معسكرات الأعمال الشاقة.. أو يُزجّ بهم إلى السجون..

أما الأسوأ حظاً على الإطلاق فيكون نصيبهم الإعدام بعد إجراء محاكمات خاصة لهم.

وأحياناً الاغتيالات السياسية

ولجأ ستالين حتى للاغتيالات السياسية.. فتم قتل الآلاف من الأعداء الطبقيين للعمال السوفيت.. داخل البلاد وخارجها.. و حتى «تروتسكي»[٣٩] رفيق درب ستالين لم يسلم من سلسلة الاغتيالات الستالينية إذ طالته يد الاغتيال في منفاه في المكسيك[٤٠] عام ١٩٤٠ بعد أن عاش في المنفى منذ عام ١٩٣٦

إرهابيون تروتسكيون

وابتداء من ١٩٣٦ بدأت الصحافة الستالينية في العالم بأسره تنشر توصيات يومية صادرة عن «اجتماعات عمالية» تصف المتهمين في محاكمات موسكو باعتبارهم «إرهابيين تروتسكيين» يقومون بأعمالهم باتفاق مع الجستابو[٤١]!

---

(٣٩) تعريف كامل بهذه الشخصية ودورها في التجربة الستالينية في فصل رجال حول ستالين.

(٤٠) الولايات المكسيكية المتحدة أو المكسيك هي دولة في أمريكا الشمالية.. يحدها من الشمال الولايات المتحدة الأمريكية.. ومن الشـــرق المحيط الأطلســـي.. ومن الغرب المحيط الهادي.. ومن الجنوب الشـــرقي دولتان من أمريكا الوســـطى هما جواتيمالا.. وبليز.. تعتبر المكسيك أكثر دولة مأهولة بمتكلمي اللغة الأسبانية في العالم.. وغالباً ما يسميها سكانها بجمهورية المكسيك إلا أن هذه التسمية غير رسمية.

٤١(الجســـتابو ألماني قاضـــي وصـــف Gestapo) وأفعاله.. فإن حركاته.. الحزب بمشـيئة الجيســـتابو تتحرك طالما«: بقوله قانونية».. والجيستابو يعرف أيضاً بالبوليس السري الألماني.. وجاءت التسمية اختصاراً من Geheime Staatspolizei) وهو أكثر أجهزة الأمن الألمانية شهرة وسرية وقد كان المسؤول geheime) السرية (Stat) الدولة (Polizeiأي شرطة (لحماية الدولة الأ صلعن العديد من عمليات الاغتيال والتدمير للملايين خلال فترة الحكم النازي.. تأســـس الجهاز في الألمانية والحزب النازي وكان ذلك في ٢٦ أبريل ١٩٣٣ في بروسـيا على يد النازي هيرمان= =جورينج الذى قام بتكوينه مستعيناً بضباط الشرطة المحترفين بعد تمكن هتلر من زمام السلطة في ألمانيا في مارس ١٩٣٣ وتم تغيير القانون الألماني بصورة تجعل الجيستابو يتحرك بصورة حرة وبعيدًا عن المساءلة القانونية.. كما نص القانون الألماني نصًا صريحًا بإعفاء الجيستابو من المثول أمام المحاكم الألمانية مما حال بين المواطنين المدنيين وو صول شكواهم إلى القضاء الألماني.. وكان يمكن لأعضاء الجهاز احتجاز الأشخاص دون دعوى قضائية.. وكان الشخص المحجوز يقوم على التوقيع على ورقة تخوّل للجيســـتابو احتجازه.. وكان في الغالب ينتزع هذا التخويل من الأشـــخاص عن طريق التعذيب الجســـدي.. وخلال الحرب العالمية الثانية بلغ عدد العاملين في الجهاز ٤٥ ألف فرد.. وعمل أفراد الجهاز خلال الأراضـــي التي احتلتها ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية وساهموا في التعرف على الشيوعيين واليهود والمثليين والعمل على تهجيرهم قسريًا إلى معسكرات الاعتقال ثم القضاء عليهم.. وخلال محاكم نورمبرج.. تمت إدانة جهاز الجيستابو قصاصاً على الجرائم الفظيعة التي ارتكبها الجهاز في حق البشرية.

محكمة موسكو

وبالنســبة للمحاكمات التى اســتمرت بين عامي (١٩٣٦& ١٩٣٨) فقد رتّب ســتالين لعقدها في العاصـمة موسـكو لتكون قدوة لباقي المحاكم السـوفيتية في طريقة التعامل وإصـدار الأحكام.. فكانت المحاكم وحدها هى التي تعطي الحق لتنفيذ أحكام الإبعاد أو الإعدام بحق خصـــوم الاشـــتراكية وفقاً للقانون.. باختصــار أدت محاكمات موسـكو إلى جريان «أنهار من الدماء» وانتهت بالفصـل التام بين نظام لينين.. ونظام ستالين.

إعدام بالجملة

ومع حلول سنة ١٩٣٨ كانت أغلبية أعضاء اللجنة المركزية.. التي التقت خلال المؤتمر ١٧ للحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي سنة ١٩٣٤ قد سقطوا رمياً بالرصاص أو اختفوا في ظروف غامضة.. وكان من بين من تم إعدامهم أعضاء المكتب السياسي إلى جانب لينين: بوخارين.. وكامينيف.. وزينوفيف.. ولم يتبق من الحزب البلشفي غير ستالين ووزير خارجيته «مولوتوف» بعد أن أباد ستالين جميع المتخاذلين والانتهازيين من أعضاء اللجنة الأصلية حتى أنه لم يميز بين عضو كبير في الحزب وصغير كان همه بقاء الحزب نظيفاً.

وإذا تعاطفنا سياسيًا مع كل ذلك نقول : أن السلطة والقيادة السوفيتية لم يكن أمامهما سوى خياران لا ثالث لهما:

- إما الحفاظ على السلطة السوفيتية والاشتراكية ومنجزاتها.. وبالتالي لابد من استخدام القانون العادل من أجل إحباط مخطط قوى الثورة المضادة في الداخل والخارج..
- أو الاستسلام وتسليم السلطة السوفيتية إلى قوى الثورة المضادة وحلفائها من الغربيين.

كما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أسباب وظروف الحرب الأهلية التي أشعلتها قوى الثورة المضاد وبالدعم والإسـناد من قبل المعسـكر الرأسـمالي.. وخاصــة من قبل أمريكا وبريطانيا وألمانيا وفرنسـا واليابان.. بهدف القضاء على السلطة السوفيتية.

إن ظروف الحرب معقدة وصعبة.. ولا يمكن لها أن تسير بالشكل الاعتيادي.. وبالتالى كان لابد من اتخاذ عقوبات رادعة.. وحاســمة ضــد هؤلاء من الخونة والهاربين من الجبهة.. والمجرمين.. وقطاع الطرق.. والمتعاونين مع قوى الثورة المضــادة.. والمتعاونين مع الجيش الألماني الفاشــي.. فلم يكن من المنطقى أو المعقول أن تعاقبهم الحكومة الســـوفيتية مثلاً بغرامات مالية.. فعلى عِظمِ الجرم.. يكون العقاب.. وأمام خيانة الأوطان لا عقوبة أقل من الإعدام الذى شمل أيضاً المجرمين واللصوص وقطاع الطرق الذين حاولوا سرقة غذاء الشعب والمتاجرة به.

***

ضربة معلم

ويؤكد دي دايفيسي السفير الأمريكي في موسكو فترة المحاكمات(١٩٣٦ ـ ١٩٣٨) :

(هناك قســمٌ من العالم اعتبر عملية التطهير الســـوفيتية للخونة خلال الفترة من عام ١٩٣٥ وحتى العام ١٩٣٩ مثيرة للاسـتياء واعتبرت في وقتها مثالاً وحشـياً ونكراناً للجميل.. ولكن فيما بعد أصـبح واضحاً ودليلاً قاطعاً على كل ما يتمتع به ستالين من فطنة وعبقرية وبعد نظر).

٣.مذبحة الجيش الأحمر

قبل أن نتحدث عما يسمى تاريخياً بمذبحة الجيش الأحمر نتعرف أولاً على هذا الجيش وظروف تكوينه:

يطلق الاسم اختصاراً على جيش العمال والفلاحين.. وهو الجيش الذي شيده البلاشفة بعد ثورة أكتوبر.. لمقاومة حركات البيض المدعومين من قبل الدول الأجنبية[٤٢] ووُصِفَ بالأحمر لما لهذا اللون من مغزى ثوري وحماسي.. ودموى.

وبعد عام واحد من نهاية الحرب العالمية الثانية ـ أي في ١٩٤٦ – تم تغيير اسمه ليصبح الجيش السوفيتي.. وأصبح هكذا حتى انهيار الاتحاد السوفيتي في ديسمبر ١٩٩١.

وفي البداية كان الجيش الأحمر يضم العديد من القبائل منها:القوقاز.. والجرمان.. وغيرها.. ولم يكن للجيش ملابس عسكرية موحدة.. وكان له دور كبير في الحرب العالمية الثانية حيث ظهرت بسالته في معركة ستالينجراد حيث كَبَد الألمان خسائر فادحة.. وتعتبر هذه الموقعة نقطة تحول في الحرب العالمية بالنسبة لألمانيا حيث كانت هذه أول هزيمة لألمانيا.. وأخذ الجيش الأحمر في التقدم حتى وقعت برلين في يده.. وقد كان الألمان يخافون من الاستسلام لقوات الجيش الأحمر خوفاً مما قد يفعلوه بهم.. وانتقم الروس مما فعله بهم هتلر.. وآثر بعض قادة الألمان الاستسلام لقوات الحلفاء خوفاً من الروس ومنهم هملر وجورنج.

الانقلاب على حكومة كيرينسكي

وبعد الانقلاب على حكومة ألكسندر كيرينسكي الوقتية.. في ليلة٢٤ & ٢٥ أكتوبر.. لم يكن للبلاشفة سوى متطوعي الحرس الأحمر.. وبعض وحدات النخبة.. لإرساء سلطتهم السياسية.

واقتداءً بكومونة باريس أول ثورة عمالية اشتراكية في العصر الحديث.. أراد البلاشفة امتلاك آلة حرب قوية لمحاربة القوات المعادية لهم.

التجنيد إجبارى

وفي ٢٣ فبراير [٤٣] بدأ لأول مرة التجنيد الإجباري في بيتروجراد وموسكو وكانت أول معركة يدخلها الجيش الأحمر ضد الجيش الإمبراطوري الألماني خلال الحرب العالمية الأولى.

تروتسكي ودوره في تنظيم الجيش

كان حتى هذا التوقيت ذلك الجيش ما هو إلا قوة مسلحة تتكون من بعض جنود متطوعين.. يقودهم في المعركة ضباط منتخبون يفتقدون إلى الخبرة العسكرية.. حتى جاء ليون تروتسكي ليعيد تنظيم وتطوير الجيش بعد أن تولى مفوضية قيادة الحرب من عام١٩١٨ وحتى عام ١٩٢٤.

---

(٤٢) تحديداً : فرنسا.. المملكة المتحدة.. تشيكوسلوفاكيا.. الولايات المتحدة.. واليابان.

(٤٣) أصبح هذا اليوم ٢٣ فبراير فيما بعد عطلة رسمية في الاتحاد السوفيتي باسم يوم حماة الوطن.

وأصبحت الخدمة العسكرية إجبارية من سن ١٨ إلى ٤٠ سنة.. حسب قرار ٢٩ مايو ١٩١٨ ووضعت خطة بناءً عليها تم إلحاق عدد من قدماء ضباط الجيش الإمبراطوري الروسي بالجيش المستحدث.. وأطلق سراح بعضهم من السجون من أجل هذه المهمة.. وتم حجز عائلات وأقارب البعض منهم كرهائن لضمان ولاء هؤلاء للدولة والنظام.

تمكن الجيش الأحمر بفضل هذا النظام وبفضل تفوقه العددي أن ينتصر نهائياً على الجيوش البيضاء وذلك بالرغم من تدخلات القوى الأجنبية المباشرة أحياناً وخسارته ضد بولونيا.. ثم بعد إخراج الجيش الياباني في أكتوبر ١٩٢٢ أصبحت كل أراضي روسيا القيصرية تحت سيطرة الجيش معلناً بذلك نهاية الحرب الأهلية.

تحوله لأداة اضطهاد

أثبت الجيش الأحمر قيمته بإنقاذه للثورة خلال الحرب الأهلية.. لكنه استُعمِلَ من جهة أخرى كجهاز قمع ضد أفراد الشعب الروسي المناهضين للحكم البولشيفي.. أو القائلين بسياسات ومذاهب أخرى.

وفر الكثير من القرويين والمزارعين نحو الغابات خوفاً من أن يرغموا على الالتحاق بالجيش الأحمر أو الأبيض.

الجيوش الخضراء

كون هؤلاء الفارين ما أصبح يُعرف فيما بعد بـ «الجيوش الخضراء» وحاربوا الجيش الأحمر.. تارة والجيوش البيضاء تارة أخرى.. وأحياناً الإثنين في آن واحد.

وتمكن الجيش الأحمر من ردع آلاف الثورات القروية التي اتخذت أبعاداً مختلفة بالرغم من أن ٨٠ بالمائة من أفراده كانوا أنفسهم من القرويين.

استطاع الجيش الأحمر إعادة ضم بعض مناطق الإمبراطورية القيصرية القديمة مثل ولايات أرمينيا (١٩٢١) وجورجيا (١٩٢٢) وكان ذلك عنوة بالرغم من الاعتراف الدولي بهما.

***

تمرد بحارة كرونشتادت

في مارس ١٩٢١ وبالرغم من أن الحرب الأهلية لم تكن قد انتهت بعد.. تمرد بحارة جزيرة كرونشتادت على الاشتراكيين.. بعد أن كانوا قد قاتلوا بشدة خلال الصراع من أجل الثورة.. وطالبوا بنهاية نظام حكم الحزب الواحد.. ورجوع السوفيت إلى السلطة.

وبالتوازي مع الجانب الاجتماعي للمطالب.. دخل زعماء المتمردين ومنهم بيتريتشونكو في محادثات مع الجيش الأبيض أملاً في الدعم العسكري ضد البلاشفة.

ومن جانب الجيش الأحمر.. قاد توخاتشيفسكي القمع في مارس ١٩٢١ حتى سقطت جزيرة كرونشتادت خلال غارة للجيش الأحمر.. قتل خلالها الآلاف من بين الجنود والبحارة.. كما أعدم المئات من المتمردين رمياً بالرصاص.

بعد الحرب الأهلية..

كان لدى الجيش الأحمر عدد كبير من الجنود.. لكن في المقابل كانت لديه مشـــكلة من ناحية العتاد العسكري.. خصوصاً العتاد العصري من دبابات.. وأسلحة حديثة.. ومعدات جوية.. وفي خلال خمس سنوات فقط تم وضع خطة متكاملة لاستكمال كل هذه الجوانب.

بعدها أصـــبح الجيش الأحمر خلال هذه الفترة مســـتكملاً في معظم مســـتوياته.. وتميز في مجال المظلات والمدرعات.. واعتُبِرَ الأفضل فيهما بين باقي جيوش العالم خلال تلك الفترة..

ومن أجل تحقيق ذلك دق الســـوفيت كل الأبواب.. فاقتنوا العتاد الأجنبي.. وتعاونوا مع الألمان.. وزرعوا شبكات تجسس في كل مكان.

وفي منتصـــف الثلاثينات كانت النتيجة فوق المتوقع.. كانت ناجحة.. وكان الجيش الأحمر يفوق أي جيش آخر في العالم في سلاحيَّ المدرعات والطائرات وما يملكه منهما.

عمليات التطهير في الجيش الأحمر

وتحت حكم ستالين في نهاية الثلاثينات وقع ما يسمى بعمليات التطهير السياسي على نطاق واسع في صـــفوف الجيش الأحمر.. وبذلك تم قطع رأس الجيش الأحمر.. حدث ذلك خلال الفترة من يونيو ١٩٣٧ ويوليو ١٩٣٨ والأرقام تقول أنه قد سُجِنَ أو أُعدِمَ ما يلي:

- ٣ مارشال من أصل ٥.
- ١٣ جنرال عسكري من أصل ١٥.
- ٨ أميرالات من أصل ٩.
- ٥٠ جنرال من هياكل الجيش من أصل ٥٧.
- ١٥٤ جنرال فرقة من أصل ١٨٦.
- ١٦ مفوض سياسي عن الجيش من أصل ١٦.
- من ٢٠٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠ ضابط.
- ١١ مفوض مساعد للدفاع.
- ٩٨ من أصل ١٠٨ عضو من الجهاز العسكري العالي.

ويعتبر جميع المؤرخين أن هذه العمليات التطهيرية أضـعفت الجيش إلى حد كبير.. خصـوصـاً أنه كان على مشارف الحرب العالمية الثانية.

بينما هناك وجهة نظر أخرى ترى أن وقع هذا التطهير لم يكن بالحدة المزعومة بما أن معظم الضباط المدانين كانوا يتبعون السلك السياسي لا العسكري البحت.. وقد يذهب البعض إلى حد القول بأن التطهير أسس لتنظيم جديد أفضل من السابق.

وقد علق جوبليز على ما حدث بقوله:

«نحن نعتقد أن ستالين سيحطم الجيش الأحمر.. لكن العكس هو الأصح.. فبعد ما حدث.. فالبلشفية تستطيع الآن التركيز تماماً نحو العدو»..

التصفيات قضت على قادة عسكريين أكفاء من أعضائه.. كان من بينهم توخاتشيفسكي(٤٤) ذلك القائد العسكري الموصوف بالعبقرية.. وبطل الحرب الأهلية.

إما ستالين.. أو الآخرين

الحقيقة في كل ذلك هى أنه لو لم يتحرك ستالين لتصفية هؤلاء على هذا النحو.. لكانوا قد تمكنوا هم منه.. وأسقطوه.. لكن كان هناك ملمحٌ آخر لما حدث وهو ما تخيله هتلر إضعافاً للجيش.. وتفريغه من قواه الداخلية.. وكان من بين الأسباب التي أقنعته بإمكانية مهاجمة الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٤١.

---

(٤٤) ميخائيل توخاتشيفسكي ضابط روسي في زمن ستالين تم إعدامه عام ١٩٣٧ بسبب اتهامه بالتآمر ضد ضباط الجيش الأحمر.

٤.ستالين.. وروسيا.. وأحداث الحرب العالمية الثانية

بعد توقيع اتفاقية عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا النازية بعامين.. قام هتلر بغزو الاتحاد السوفيتي.. ولم يكن ستالين يتوقع الغزو الألماني.. فقد كان يسعى لكسب الوقت ليتسنّى له بناء ترسانته العسكرية.. وتطويرها.. إلا أن هتلر لم يترك الاتحاد السوفيتي يؤهّل نفسه عسكريًا.. وتمكّن الألمان من تحقيق انتصارات عسكرية في بداية غزوهم للاتحاد السوفييتي نتيجة ضعف خطوط الدفاع السوفيتية الناتجة عن إعدام ستالين لكثير من جنرالات الجيش الأحمر.

وتكبّد الاتحاد السوفيتي خسائر بشرية فادحة في الحرب العالمية الثانية.. إذ كان الألمان يحرقون القرى السوفيتية عن بكرة أبيها.. وقُدِّرت الخسائر البشرية في الحرب العالمية الثانية فقط ما بين من ٢١ إلى ٢٨ مليون مواطن.

لكن صرامة ستالين وقسوته فيما يخص الاشتراكية وقضايا الشيوعية واستبسال المقاتلين في الجيش الأحمر وقوى الأنصار أدت في النهاية إلى النصر التام على النازية وعلى جيوش هتلر في التاسع من مايو عام ١٩٤٥.

فكيف دارت أحداث الحرب العالمية الثانية على روسيا تحت قيادة ستالين؟

هذا ما سنتحدث عنه من خلال هذا الفصل..

قبل البداية : معاهدة هتلر – ستالين

كانت الحرب قادمة لا محالة.. كل الدلائل تشير لذلك.. وفي الأفق بدأت الغيوم.. كان ستالين يدرك ذلك جيداً.. وبالتالي كان يريد أن يصل بسرعة إلى اتفاق تعاونى مع هتلر.. مهما كلفه ذلك من ثمن ظناً منه أن هذا هو الحل.. خاصةً بعد أن قدم البريطانيون تشيكوسلوفاكيا لهتلر على طبق من ذهب.

وخلال أسبوع واحد تم توقيع معاهدة ستالين هتلر.. حتى أن قادة الأممية الشيوعية أنفسهم فوجئوا بالأمر.

وفي بريطانيا.. يبدو أن الأمين العام للحزب الشيوعي هناك وكان يدعى هاري بوليت لم تعجبه تلك الخطوة.. فأعلن عن موقفه.. وكانت النتيجة أن أُقِيلَ من منصبه وشُوِهَت سمعته بأمر من موسكو.

وتم توقيع المعاهدة بين وزير الخارجية السوفيتي مولوتوف مع وزير الخارجية الألماني يواكيم فون ريبنتروب[٤٥] وفي حضور جوزيف ستالين.

وبموجب هذه المعاهدة التى كان من بين أسمائها «معاهدة عدم الاعتداء» تم تقسيم بلدان شمال وشرق أوروبا إلى مجالات نفوذ بين كلٍ من الجانبين الألمانى والروسى.. وقُسمت بولندا إلى قسمين :

- قسم استولت عليه روسيا الستالينية..
- وقسم استولت عليه ألمانيا النازية..

(٤٥) يواكيم فون ريبنتروب (٣٠ أبريل ١٨٩٣ في فيزل - ١٦ أكتوبر ١٩٤٦ في نورنبرج) - من أبرز قيادات ألمانيا النازية.. وزير الخارجية من ٤ فبراير ١٩٣٨ إلى ٣٠ أبريل ١٩٤٥ كما شغل منصب سفير ألمانيا لدى بريطانيا من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨.أدين بجرائم ضد الإنسانية في محكمة نورنبرج وأعدم. عرف عنه دوره في وضع معاهدة عدم الاعتداء الألمانية السوفياتية قبل الحرب العالمية الثانية.

فما الذي حدث.. وما هى الأسباب التى أدت إلى توقيع هذه المعاهدة.. وما هى النتائج المترتبة عليها؟.

هل كانت عملاً دفاعياً؟

وصف الستالينيون هذه المعاهدة بأنها عملاً «دفاعياً» كان لابد منه.. لكن إذا صح هذا التبرير فلماذا لم تحل إذن هذه المعاهدة دون اندلاع الحرب بين الطرفين ألمانيا وروسيا فيما بعد؟.

هل كانت هدنة لالتقاط الأنفاس؟

بالتأكيد.. هذا هو الرأى الأكثر صواباً.. فقد ساعدت هذه المعاهدة هتلر على تحقيق أهدافه.. كما أدت في الوقت نفسه إلى نشر الارتباك والإحباط بين صفوف المناضلين الشيوعيين في كل أنحاء العالم.. الذين طالما نددوا بهتلر باعتباره أخطر أعداء الطبقة العاملة وأكبر تهديد للسلام العالمي.

هذه المعاهدة شيئاً مختلفًا

كما كانت هذه المعاهدة شيئاً مختلفاً تماماً.. لقد شكلت تقاطعاً حاداً مع التقاليد البلشفية والسياسة الخارجية للينين وتروتسكي.. وعلى حد تعبير تروتسكي آنذاك:

« كانت هذه المعاهدة مقياساً يمكن بواسطته قياس درجة انحطاط البيروقراطية واحتقارها للطبقة العاملة العالمية.. وللأممية الشيوعية»

والرؤية الموضوعية للحقائق تجعلنا نشارك تروتسكي هذا الرأى.. فمما لاشك فيه أن صعود النازية في ألمانيا كان له تأثيره المدمر على الطبقة العاملة الألمانية.. التي كانت الأقوى والأكثر تنظيماً في العالم.. بعد أن سمحت للنازية بأن تنتصر.. «دون أن يتم كسر ولو نافذة واحدة».. على حد تعبير هتلر الذى قاله في إحدى خطبه بكل فخر.

ووقتها اتضح عملياً للجميع مدى الإفلاس التام لقادة الحزب الشيوعي الألماني عندما تم تعيين هتلر رئيساً للوزراء.. حيث اكتفوا وقتها بالقول وهم مملوءين بالتفاؤل الكاذب:

«بعد هتلر سوف يأتي دورنا»

لكن هتلر لم يعطهم الفرصة على الإطلاق.. فقد تمكن هو ونازيوه من تقسيم الطبقة العاملة الألمانية وشل حركتها.. مما أدى في النهاية إلى تصفية الحزب الشيوعي.. والحزب الاشتراكي.. وجميع المنظمات العمالية المستقلة.

نتائج المعاهدة

مكنت هذه المعاهدة النازيين من الحصول على المواد الخام التي كانوا يحتاجونها من أجل بناء آلتهم الحربية في أوروبا.. لكي يتم توجيهها فيما بعد إلى صدر الاتحاد السوفيتي نفسه.

وفى سنة ١٩٤٠ قدمت روسيا الستالينية لألمانيا ٩٠٠ ألف طن من الزيوت المعدنية و١٠٠ طن من خردة الحديد و٥٠٠ ألف طن من الحديد.. إضافة إلى كميات هائلة من معادن أخرى.

لقد انبطح الدبلوماسيون السوفيت بخزي أمام الفوهرر من أجل الحصول على رضاه. وبطريقته المعهودة.. قام ستالين بطرد جميع سفراء البلدان التي احتلتها جيوش النازيين.. من الاتحاد السوفيتي.

هتلر يغزو روسيا

وفي النهاية.. وبالرغم من المؤشرات الواضحة والتحذيرات.. وبالتحديد في شهر يونيو ١٩٤١ ومع عدم تصديق ستالين نفسه.. قام هتلر بغزو روسيا.. ولم يجد أمامه سوى مقاومة هزيلة لم تصمد.. لم يكن الاتحاد السوفيتي مستعداً وتكبد خسائر ثقيلة.

وعندما سمع ستالين الأخبار اختفى لأكثر من أسبوع.. ثم عاد للظهور وهو تقريباً يصرخ قائلا:

«كل ما بنيناه قد ضاع».

ولم يتمالك أعصابه في النهاية إلا عندما نظمت المقاومة نفسها.. وبدأ يقف على قدميه من جديد.

المستفيدون ينتظرون

ابتهج الإمبرياليون لرؤية النازيين يهاجمون الاتحاد السوفيتي أملاً منهم في أن تؤدي تلك الحرب إلى إنهاك الطرفين معاً.. فيصبح بإمكانهم في النهاية أن يتحركوا ويضربوا ضربتهم.. لكن حساباتهم كانت خاطئة.. لأنهم لم يدخلوا في حسبانهم الاقتصاد المخطط.. الذي تمكن.. بالرغم من التبذير وسوء الإدارة من جانب البيروقراطية.. من رفع الإنتاجية.. وتحمل ثقل الحرب.

لقد تحولت الحرب العالمية الثانية إلى صراع بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا.. بينما وقف الحلفاء يتفرجون.

وفي سنة ١٩٤٣ قضى ستالين على الأممية الشيوعية من أجل خطب ود الإمبرياليين.. لكنهم في المقابل صموا آذانهم أمام نداءات روسيا لهم ليفتحوا جبهة ثانية ضد النازيين.

وفي سنة ١٩٤٥ تمكن الجيش الأحمر من سحق آلة الحرب النازية وهزيمة هتلر.. وهو أهم المعطيات التي عملت على تقوية الستالينية طيلة مرحلة تاريخية كاملة.

٥.ستالين وأحداث النهاية

في الأول من مارس ١٩٥٣ وخلال مأدبة عشاء بحضور وزير الداخلية السوفيتي لافرينتي بيريا[٤٦] و«خوروتشوف» [٤٧] وآخرون.. تدهورت حالة ستالين الصحية ومات بعدها بأربعة أيام.. تجدر الإشارة أن المذكرات السياسية لـ «مولوتوف» والتي نُشرت في عام ١٩٩٣ تقول أن الوزير «بيريا» تفاخر لـ «مولوتوف» بأنّه عمد إلى دسّ السم لستالين بهدف قتله.. وقد ذكرت المصادر الرسمية أن وفاته كانت نتيجة جلطة دماغية.

وتم تحنيط جثته ووضعت بجانب لينين في التاسع من مارس وبقيت حتى سنة ١٩٦١ عندما حركت جثته ودفنت بالقرب من الكرملين[٤٨].

بعد ستالين

بعد وفاة ستالين عام ١٩٥٣ قرر أعضاء اللجنة المركزية السبعة المجتمعون أن يتولى ثلاثة منهم السلطة وتم الاتفاق على أن تتكون الجنة الثلاثية من :

- مولوتوف .
- مالينكوف .
- لافرينتي بيريا..

إلا أن الأخير طمع في الانفراد بالحكم فأعُتقل وأعُدم..

واستفاد خروتشوف من تصفية بيريا فأزاح مالينكوف بسهولة.. وأحل بولجانين مكانه.. وفي الوقت نفسه تصدى لحل مشاكل متعددة كانت مفتاح شعبيته..

أحداث المؤتمر العشرين

كان المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى الذى تم انعقاده في عام ١٩٥٦ هو أول مؤتمر ينعقد بعد وفاة ستالين.. وفيه جاءت ضربة خروتشوف الكبرى حيث أعلن فيه الحرب على الستالينية التي كانت حرباً على الثوابت الشيوعية.. وخضع فيه الخط الجديد للمناقشة قبل أن يُقر ويُطبق بعد ذلك على كافة الأصعدة (الأيديولوجي والاقتصادي والعلاقات بين الدول ذات الأنظمة المختلفة)..

---

(٤٦) تعريف كامل بالشخصية ودورها في التجربة الستالينية في فصل رجال حول ستالين.
(٤٧) تعريف كامل بالشخصية ودورها في التجربة الستالينية في فصل رجال حول ستالين.
(٤٨) الكرملين كلمة روسية معناها القلعة أو الحصن.. وتطلق هذه الكلمة اليوم علي مركز موسكو القديم بمبانيه وهو محاط بجدار ضخم طوله ميلان ونصف وارتفاعه ٦٥ قدماً.. ويضم الكرملين عدة قصور فاخرة كانت قديماً ملكاً للقيصر ورجاله قبل أن تتحول إلى متاحف.. يقع الكرملين في موسكو على تل «بوروفيتسكي» على الطرف الأيسر لنهر موسكوفا حيث يصب فيه نهر نيجليانا.. ويبلغ ارتفاعه نحو ٢٥ متراً.. وكان القيصر الروسي إيفان الثالث (عاش بين ١٤٤٠-١٥٠٥ وحكم بين ١٤٦٢-١٥٠٥) قد أمر في القرن الخامس عشر باستدعاء مهندسين معماريين من روسيا وإيطاليا لتجديد الكرملين.. وتم بناؤه على أساس الجمع بين تقاليد فن العمارة الروسي والهندسة المعمارية الإيطالية في عصر النهضة.. وبدأت تظهر بعد ذلك في الكرملين مبان وكنائس وقصور جديدة.. وحولته السلطات الحاكمة بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ إلى مقر لأجهزة الحكم العليا.

٦.ستالين.. والتجربة الستالينية

الرؤية التطبيقية لبناء الشيوعية التى اعتمدها الاتحاد السوفيتي.. ومازالت أغلب الأحزاب الشيوعية تعتمدها[٤٩].. تقول بإمكانية تحقيق ذلك عن طريق برنامج تصـنيعي وجماعي ضـخم.. وهو ما تذهب إليه الماركسـية اللينينية في جانبها التطبيقي.. مع التركيز على بناء حزب واحد يحكم نيابة عن الطبقة العاملة.. ويعمل الجميع على تطوير الدولة في شـكلها المركزي.. وهو ما قام لينين تحديداً بتكييفه مع الوضع في روسيا.

وقبل أن نتحدث عن تفاصيل التجربة الستالينية.. وحتى تتضح لنا الصورة بشكل متكامل نتعرف أولاً على «الشيوعية» بمعناها الأيديولجى.. ومراحلها التاريخية.. والتطبيقية.. وأشهر مدارسها.. ونبدأ أولاً بتعريف المسمى..

ماذا تعنى «الشيوعية»

الشـيوعية في اللغة تأتي من كلمة شـيوع.. أو مشـاع.. وهي في مفهوم الماركسـيين والشـيوعيين.. شيوع ملكية للأرض.. كذا وسائل الإنتاج.. وحسب أدبيات الأحزاب الشيوعية فإن الفرق بين الشيوعية والاشـتراكية يتلخص في أنه بينما تقول النظم الاشـتراكية.. «لكل عمله ولكل حسـب جهده».. تقول الشيوعية «لكلٍ عمله ولكلٍ حسب حاجته».

بين النظرية والتطبيق

وإذن الشـيوعية هي نظرية اجتماعية وحركة سـياسـية ترمي إلى السـيطرة على المجتمع ومقدّراته لصـالح أفراد المجتمع بالتسـاوي.. ولا يمتاز فرد عن آخر بالمزايا التي تعود على المجتمع.. وتعتبر الشيوعية (الماركسية) من أهم التيارات السياسية والتاريخية المعاصرة.

والأب الروحي المنظر للشـيوعية هو كارل ماركس.. بينما أهم من تعامل مع النظرية الشـيوعية.. وأسهم في شروحها.. وإليه يعزى الجانب التطبيقى منها هو فلاديمير لينين.

---

(٤٩) حالياً وعلى الرغم من سقوط الاتحاد السوفييتي فما زالت الأحزاب الشيوعية تدعو لعودة الماركسية اللينينية.

وفي الرؤية الماركسية لتلك النظرية تعتبر الشيوعية مرحلة حتمية في تاريخ البشرية.. تأتي بعد مرحلة الاشتراكية.. وتأتي كتطور تاريخي لها.. ويرى أعداء الشيوعية أن التطور التاريخي لها يقود إلى مرحلة العولمة.. التى رأى فوكوياما(٥٠) أنها نهاية التاريخ.

العولمة نهاية التاريخ

وفي النظام العالمي الذي تنبأ به فوكوياما يقول إنها ستقصي ثمانين بالمئة من سكان الأرض خارج سوق العمل.. وسيعيشون على الفتات.. ويرى الشيوعيون أن مرحلة العولمة هي ذاتها مرحلة الكوسموبوليتية(٥١) التي تحدث عنها ماركس في بيانه الشيوعي.. لكن الشيوعيين يرون أن عهد العولمة الكوسموبوليتي سينتهي إلى نظام اشتراكي تفرضه الثورات.. أما أعداء الشيوعية فيرون أن العولمة هي نهاية التاريخ.. ولن تتطور البشرية بعدها.

الجذور التاريخية للشيوعية

كثير من المثقفين الغربيين قاموا بالدفاع عن أفكار مشابهة لفكرة الشيوعية.. ففي القرن الرابع قبل الميلاد.. قام الفيلسوف اليوناني أفلاطون(٥٢) باقتراح يضع ملكية العقارات بيد طبقة مثقفة من المجتمع

---

(٥٠) فرانسيس فوكوياما كاتب ومفكر أمريكي الجنسية من أصول يابانية ولد في مدينة شيكاغو الأمريكية عام ١٩٥٢ ويعد من أهم مفكري المحافظين الجدد وأهم الفلاسفة والمفكرين الأمريكيين المعاصرين.. من أهم كتبه كتاب (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) و(الانهيار أو التصدع العظيم) وهو أستاذ للاقتصاد السياسي الدولي ومديراً لبرنامج التنمية الدولية بجامعة جونز هوبكنز.. تخرج من قسم الدراسات الكلاسيكية في جامعة كورنيل.. ودرس الفلسفة السياسية.. وحصل على الدكتوراه من جامعة هافارد في العلوم السياسية.. عمل بوظائف عديدة منها مستشاراً في وزارة الخارجية الأمريكية.. في عام ١٩٨٩ نُشِرَ له مقالٌ اعتبرت أحدث النظريات في تاريخ النظريات السياسية الحديثة وكانت National Interest بدورية ناشونال انترست تحمل عنوان « نهاية التاريخ» أكد فيها أن نهاية تاريخ الاضطهاد والنظم الشمولية قد ولى وانتهى إلي دون رجعة مع انتهاء الحرب الباردة وهدم سور برلين.. لتحل محله الليبرالية وقيم الديمقراطية الغربية.. وقد أضاف وشرح فوكوياما نظريته المثيرة للجدل في كتاب أصدره عام ١٩٩٢ بعنوان «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» وقد قصد فوكوياما أن يعارض= =فكرة نهاية التاريخ في نظرية كارل ماركس الشهيرة «المادية التاريخية».. والتي اعتبر فيها أن نهاية تاريخ الاضطهاد الإنساني سينتهي عندما تزول الفروق بين الطبقات. كما تأثر فوكوياما في بناء نظريته بأراء الفيلسوف الشهير هيجل وأستاذه الفيلسوف ألن بلوم.. حيث ربط كلاهما بين نهاية تاريخ الاضطهاد الإنساني واستقرار نظام السوق الحرة في الديمقراطيات الغربية.. أسس هو وآخرون في عام ١٩٩٣ مركزاً للبحوث عرف آنذاك بمشروع القرن الأمريكي.. وقد دعا هو ورفاقه الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون إلى ضرورة التخلص من نظام الرئيس العراقي السابق صدام حسين.. ثم وقع على خطاب مماثل وجهه إلى الرئيس بوش في أعقاب هجمات ١١ سبتمبر.. وكان فوكوياما خلال تلك الفترة مؤمناً بضرورة التخلص من الأنظمة الاستبدادية بالقوة خاصة في حالة الشرق الأوسط.. طرأت تحولات على مواقف وقناعات فوكوياما في نهاية عام ٢٠٠٣.. حين تراجع عن دعمه لغزو العراق.. ودعا إلى استقالة وزير الدفاع الأمريكي في ذلك الوقت دونالد رامسفيلد.. وأضاف أن معركة كسب عقول وقلوب المسلمين حول العالم هي المعركة الحقيقية.

(٥١) الكوسموبوليتية.. (باليونانية تعني : الأرض والسياسة) وهى كمصطلح سياسي تعنى اللاقومية.. وتعبر عن مصطلح استعمله كارل ماركس وفريدريك أنجلز.. لوصف حالة الشركات الاحتكارية.. التي ولدت من رحم المنافسة الرأسمالية.. وقصد ماركس وأنجلز استعمال هذا التعبير ليكون وصفاً أكثر دقة.. لحالة الاندماج بين شركات من عدة جنسيات.. تبحث عن يد عاملة رخيصة ومواد أولية وفيرة.. بحيث تفقد الشركات صبغتها القومية.. ويصبح منتجها مصنعاً في أكثر من بلد.

(٥٢) أفلاطون أو أرسطوطاليس.. الملقَّب بأفلاطون بسبب ضخامة جسمه.. ولِدَ وعاش في اليونان في عائلة أرسطوقراطية بين عامي (٤٢٧ ق.م - ٣٤٧ ق.م) وهو واحد من أشهر فلاسفة التاريخ الإنساني على الإطلاق.. وتعتبر الفلسفة الغربية مجرد حواشي لما قاله وكتبه أفلاطون.. وذلك من خلال مخطوطاته التي جمعت بين الفلسفة والشعر والفن.. كانت كتاباته على شكل حوارات ورسائل وقصائد قصيرة محكمة تنتهي بحكمةٍ.. أو سخرية.. ويحدد أفلاطون الفلسفة بأنها عالم الأفكار.. وكان ينادى بأنه من أجل استتباب النظام والعدالة ينبغي أن تصبح الفلسفة أساسًا للسياسة.. سافر إلى جنوب إيطاليا.. التي كانت تُعتبَر آنذاك جزءًا من بلاد اليونان القديمة.. وهناك التقى بالفيثاغوريين.. ثم انتقل من هناك إلى صقلية حيث قابل ديونيسوس.. ملك سيراكوسا المستبد.. على أمل أن يجعل من هذه المدينة دولة تحكمها الفلسفة.. لكنها كانت تجربة فاشلة.. سرعان ما دفعته إلى العودة إلى أثينا.. حيث أسَّس.. في حدائق أكاديموس.. مدرسته التي باتت تُعرَف بأكاديمية أفلاطون.. لكن هذا لم يمنعه من معاودة الكرة مرات أخرى لتأسيس مدينته في سيراكوسا في ظلِّ حكم مليكها الجديد ديونيسوس الشاب.. ففشل أيضًا في محاولاته.. الأمر الذي أقنعه بالاستقرار نهائيًّا في أثينا حيث أنهى حياته محاطًا بتلاميذه.

لكي يبعد عن طبقات المجتمع الدنيا التناحر فيما بينها في ذلك النوع من الملكية.

القدس الجديدة

وفي عام ١٥٣٤م. قام شــخص يدعى «جون» من مدينة لايدين بتحويل مدينة منســتير إلى مجتمع أطلق عليه اسم «القدس الجديدة» وابتدع فكرة تعدد الأزواج والزوجات إلى أن هاجم الكاثوليك المدينة مما أدى إلى حدوث مذبحة أنهت ذلك الحلم.

نيو هارموني

وفي القرن التاسع عشر وإبّان الثورة الصناعية في أوروبا.. سئم كثيرون من الانحطاط والاضطهاد الذين ألمّا بالناس نتيجة اللهث وراء لقمة العيش فاعتزلوا المجتمع.. وأشــــهر من دعا إلى تطبيق ذلك شـــخص يدعى «روبرت أوين»[٥٣] والذي اعتزل المجتمع.. وكوّن مجتمعاً صـــغيراً أســـماه «نيو هارموني» في ولاية إنديانا الأمريكية وكان المجتمع الصغير الذي أنشأه يتخذ طابعاً شيوعياً.

---

(٥٣) وُلِدَ روبرت أوين لأبوين معدمين في ويلز سـنة ١٧٧١ ترك المدرسـة في سـن التاسـعة ثم عمل مسـاعد في تاجر كتان.. وبأسلوب رجل الأعمال المغامر قرر الذهاب إلى مانشستر.. وهناك.. وهو في سن الثامنة عشر.. واعتمادا على مبلغ ١٠٠ جنيها اقترضها من أخوه.. أقام نفسه هناك كرجل صناعة صغير في صناعة النسيج.. وبعد مرور عشرة أعوام نال شهرة عالمية.. ورغم ذلك الصــعود الســريع كان أوين يري نفســه على أنه رجل أفكار ومبادئ وليس فقط رجل أعمال وكانت المدينة فرصــة لاختبار وتجريب النظريات التي أبدعها حول الإسـهام في رقي البشـرية بصـفة عامة.. ذلك لأن أوين كان مقتنعا بأن البشـر لا يختلفون كثيرا عن البيئة التي يعيشـون فيها وإذا ما تم تغيير هذه البيئة سـتظهر جنة حقيقية على سـطح الأرض. وفي نيو لانارك استطاع أن يختبر صـحة أفكاره.. كما لو كان في معمل.. وعندما نجحت هذه الأفكار بشكل يفوق كل التوقعات.. فقد أنه لا يوجد مانع من تطبيقها على العالم الكبير بشكل أوسع.. وففي الفترة فيما بين ١٨١٦ و ١٨٢٠ كانت حالة التجارة والأعمال شديدة السوء.. وكان هذا الفقر المدقع يهدد بانفجار الموقف في البلد.. فقد اندلعت أعمال الشغب التي تنادي «بالخبز أو الدم».. وســيطرت حالة من الهســتيريا والجنون على زمام الأمور.. وقدم أوين للحكومة مخططاً لإعادة التنظيم الاجتماعي على نطاق واسع.. وكان ما أقترحه هو أن حل مشكلة الفقر يكمن في جعل الفقراء أنفسهم أفراداً منتجين.. ومن أجل تحقيق هذه الغاية دافع عن تكوين قرى تعاونية يعمل فيها ما بين ٨٠٠ إلى ١٢٠٠ شخص سوياً سواء في مزرعة أو مصــنع من أجل تكوين وحدة اكتفاء ذاتي.. ولكل أسـرة شـقة خاصــة بها على أن تشــترك الأســر جميعها في حجرات الجلوس.. والقراءة.. والمطابخ.. ومن حولها تمتد الحقول الغنية بالمحاصيل الوافرة.. وبعيداً عن المناطق المأهولة بالسكان تقام المصــــانع.. وبالتالي ســتكون تلك هي مدينة حدائق منظمة.. أو ما يطلق عليه الكيبوتز kibbutz أو الكوميون commune وهو ولم يتم جمع المال اللازم لإنشـاء هذه القرية التعاونية ولكن لم يكن هناك شـيئا يمكنه كبح جماح الرجل.. وهو وإن كان قد حقق ثروة فإنه قد كرس كل ثروته لتحقيق أفكاره.. واختار أمريكا لتنفيذ هذا المشروع فذهب واشتري هناك من طائفة دينية ألمانية قطعة من الأرض تقدر بحوالي ثلاثين ألف هكتاراً على ضــفاف نهر الواباش في= =بوزي كاونتي بولاية إنديانا.. وفي الرابع من يوليو عام ١٨٢٦ أعلن أوين الاســتقلالية التامة لهذه البقعة من الأرض عن الملكية الخاصــة.. ثم تركها للتطور من تلقاء ذاتها حاملة اسما جميلا طموح وهو «نيو هارموني أو الانسجام الجديد».. كان أوين يتخيل إمكانية وجود مجتمع مثالي ينبثق إلى هذا العالم من العدم.. ولم يكن مستعداً لاقتطاع مجتمع جديد من المجتمع القديم.. ولم يكن هناك تخطيطاً.. فلقد جاء حوالي ٨٠٠ مستوطنا للمعيشة في هذه المنطقة وبعد مرور عدة أسابيع سادت المنطقة حالة من الفوضى وعدم النظام.. وبحلول عام ١٨٢٨ كان من الواضح أن هذا المشروع قد فشل واضطر أوين إلى بيع الأرض مع خسارة حوالي أربعة أخماس ثروته في هذه المغامرة.. وفي نهاية الأمر واجه اتهامات بالإلحاد والزندقة.. وفي أواخر أيامه وجد ملاذه في الدراسـات الروحية.. وهو ما نجده في كتابات كثيرة عنده ويمكننا أن نلمسـه في «سـيرته الذاتية» الرائعة. وتوفي ذلك الرجل في عام ١٨٥٨ عن عمر يناهز السـابعة والثمانين عاماً.. وكان لا يزال طموحاً يصــفه أحد الكتاب المعاصــرين بطريقة صــادمة قائلا:«لم يكن روبرت أوين يختلف كثيراً عن كتاب تقدم بقراءته».. ولم يكن ذلك الرجل.. بأي درجة من درجات الخيال.. عالم اقتصــاد.. ولكنه كان أكثر من ذلك: لقد كان مبدعاً اقتصــادياً قام بإعادة تشـكيل المواد الخام التي يجب على علماء الاقتصــاد أن يتعاملوا معها. وكان مثل كل الاشــتراكيين اليوتوبيين.. يريد للعالم أن يتغير.. ولكن بينما كان الآخرون يكتبون.. بقوة أو بغيرها.. كان أوين يحاول جاهداً أن يطبق هذه الكتابة والنظريات حتى تتحول إلى واقع حقيقي وملموس.

الصراع بين طبقات المجتمع

حتى جاءت أفكار كل من كارل ماركس وفريدريك إنجلز لتتمثّل الشـــيوعية كحركة ثورية.. ولكن ليس من الضـــروري أن تتبلور هذه الحركة في بقعة معينة من العالم.. بل من الممكن أن تحدث في العالم كلّه استناداً على الورقة التي تقدّم بها الرجلان لوصف الشيوعية.. وفيها يصف الرجلان التاريخ

- بحلوه ومرّه- بأنه صراع بين طبقات المجتمع.. وفي كل مجتمع نجد أن طبقة صغيرة نافذة تشرف على عملية الإنتاج.. والعطاء.. بينما السواد الأعظم من المجتمع يسـهم إسـهاماً قليلاً في عجلة المجتمع الاقتصادية والإنتاجية.

نظرية قيمة العمل

وفي هذه المرحلة.. كانت الرأسمالية تتحكم وتسيّر عجلة الاقتصـاد بصورة غير منصفة من وجهة نظر كارل ماركس في نظريته المســماة قيمة العمل.. وفيها يتحدث عن كيفية اســتغلال البرجوازيين للطبقة الكادحة.. ويسـتدلّ بالطريقة التي يشـتري بها أرباب الأعمال وقت العامل عن طريق دفع راتب مقطوع لهذا العامل.. ومن ثمّ يقوم ربّ العمل ببيع الســلعة التي يصــنعها العامل بفارق ربح.. وكان كارل ماركس يرى في تلك العملية إجحافاً بحق العامل.. وأن هناك خللٌ في تطبيق العدالة بين ما يجنيه العامل من عائد متمثّل في راتبه المقطوع.. وبين الربح الفاحش الذي يجنيه أرباب الأعمال.

وكان ماركس يعتقد أنّها مسألة وقت يعي فيها العمّال في شتّى أنحاء الأرض الأهداف المشتركة في تحقيق العدالة الاجتماعية.. ويتّخذوا الخطوة الأولى في الإطاحة بأرباب الأعمال.. والقيام على تقســيم الثروة بينهم.. وعزل البرجوازيين من معادلة الرّبح.. وأن هذا التصرّف سيكون تلقائياً وحتمياً.

عيوب في التطبيق

إذاً.. واستناداً إلى نظرية كارل ماركس.. سيتحوّل العالم الرأسمالي إلى عالم اشتراكي.. وفي النهاية سـيصـل به المطاف إلى الشـيوعية.. وكانت الشـيوعية ما زالت نظرية في الكتب باسـتثناء كومونة باريس(٥٤) ولم يتم التطرق إلى أسس التنظيم بشكل مباشر داخل الأحزاب الشيوعية.

كما أن التدابير الثورية التي وضـــعها كارل ماركس وفريدريك إنجلز كانت عاجزة عن أن تكون أممية.. فمثلاً كان أحد التدابير الثورية هو أن على الشـيوعيين عند الاسـتيلاء على السـلطة البدء بتأميم المصـــارف.. وهذا التدبير لا ينطبق على الدول التي لا يوجد فيها مصـــارف خاصـــة.. لذلك نوه إنجلز لاحقاً على أن التدابير الثورية يجب أن تكون حسب ظروف الدول.

---

(٥٤) كومونة باريس هي نظام جماعي أدار باريس في الفترة ما بين ١٨ مارس إلى ٢٨ مايو عام ١٨٧١ هي حركة نقابية وعمالية يسارية.. قامت بثورة تعتبر أول ثورة اشتراكية في العصر الحديث.. استولت على السلطة في فرنسا لمدة شهرين.. ثم قامت بتعديل لون العلم الفرنسي إلى اللون الأحمر..= =وأجرت العديد من الإصلاحات أهمها الإصلاحات التربوية.. ومن ثم فصل الدولة عن الدين.. وتم إلغاء العمل الليلي.. ومنع الغرامات والضرائب المفروضة على أجور العمال.. واستطاعت تشـغيل المعامل التي تركها أصـحابها هرباً ولجأوا إلى فرسـاي.. وتحول العمال والعاملات إلى جنود فوق المتاريس للدفاع عن إنجازهم.. لكن قُمِعَت الثورة دموياً بشكل فظيع على يد تيير.. وسقطت في أيامها الستة الأخيرة بعد مجازر دموية راح ضـحيتها الآلاف.. لكنه ينظر إليها بشـكلٍ عام باعتبار كونها النار التي أوقدت العديد من الثورات الاشـتراكية بعدها.. وما زال الشيوعيين حول العالم حتى اليوم يحتفلون بذكرى كومونة باريس.

الماركسية- اللينينية

هنا جاء لينين ليضع أساسيات التدابير الثورية.. وأسس تنظيم الأحزاب الشيوعية.. وقام بأول ثورة شيوعية.. وارتبط اسمه باسم الشيوعية.. حيث أصبحت الأحزاب الشيوعية تنتهج الماركسية- اللينينية.. ويعبر اسم الماركسية عن أيديولوجيا الأحزاب الشيوعية.. ويعبر اسم «اللينينية» عن أسس التنظيم.

.أنواع ومدارس أخرى من الشيوعية

التروتسكية

أسس تروتسكي ما يعرف في تاريخ الشيوعية بالأممية الرابعة التي نشطت في البلدان المتقدمة في أوروبا وأمريكا.. وقامت التروتسكية على أساس الثورة البروليتاريا العالمية.. ويمكننا أن نطلق عليها المعارضة اليسارية لستالين.. فقد أخذ تروتسكي منهج المعارضة لستالين.. وانتهى به الأمر إلى نجاحه في نفي تروتسكي خارج البلاد.

الماوية

وهى اتجاه ماركسي لينيني مرتبط بـــ «ماو تسي تونج» ويحمل اسمه مباشرةً.. وصفت في الاتحاد السوفيتي بأنها معادية للرجعية.

التيتوية

عرفت التيتوية في يوغسلافيا على يد زعيمها تيتو[٥٥] وتقوم على أساس أن كل بلد يجب أن يكون لديه وسائله الخاصة من أجل تحقيق الشيوعية وفقاً لظروف البلد نفسه.. بدلاً من تطبيق نماذج لدول أخرى.

---

(٥٥) جوزيف بروز تيتو (٢٥ مايو ١٨٩٢ - ٤ مايو ١٩٨٠) كان ثورياً.. ودكتاتورًا.. شغل منصب الأمين العام لرابطة الشيوعيين في يوغوسلافيا (١٩٣٩-١٩٨٠).. وقاد حركة العصابات اليوغوسلافية ضد النازيين في الحرب العالمية الثانية.. وفي الفترة من ١٩٤٣ حتى وفاته عام ١٩٨٠ حمل رتبة مشير بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة.. والجيش الشعبي فى يوغوسلافيا.. وهو من أكبر الدكتاتوريين الشيوعيين في تاريخ الشيوعية.. وأحد مؤسسي مكتب الإعلام الشيوعي.. ومن المؤسسين الرئيسيين والمروجين لحركة عدم الانحياز.. والأمين العام الأول للحركة.. وذلك على= =الرغم من تقربه لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية في الحرب الباردة.. وُلِدَ في كرواتيا لأب كرواتي وأم سلوفينية.. جُنِدَ في الجيش عام ١٩١٣ وتم اعتقاله بتهمة الدعاية ضد الحرب.. ثم أُرسِلَ للحرب ضد روسيا عام ١٩١٥ وأُسِرَ من قِبَل الروس وهو مصاب أثناء المعركة.. وبعد خروجه من المستشفى أُرسِلَ إلى معسكر عمل في جبال الأورال.. اختاره السجناء زعيماً لهم.. وبعد أن تم اقتحام السجن من قبل بعض العمال.. خرج وانضم إلى مجموعة من البلاشفة الروس.. أُعتقل مرة ثانية لكنه هرب أيضاً.. وفي عام ١٩١٨ انضم للحرس الأحمر.. وانتسب للحزب الشيوعي الروسي.. وفي عام ١٩٣٤ انتُخِبَ عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي اليوغسلافي.. وفي عام ١٩٣٥ كان ممثل الحزب الشيوعي اليوغسلافي في الكومنترون وبقي لمدة عام في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٦ كُلِفَ بالعودة لتطهير صفوف الحزب الشيوعي اليوغسلافي.. وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية أسس تيتو مجلس التحرير الوطني وكان من مهامه التصدي للفاشية.. وفي يونيو من عام ١٩٤٣ قام تيتو بتشكيل حكومة مؤقتة.. وبدأت أعمال المقاومة ضد دول المحور وتزعم تيتو المقاومة الشيوعية.. حاولت ألمانيا اغتياله ثلاث مرات عبر إنزالات جوية كلها باءت بالفشل.. وفي عام ١٩٤٥ وقع اتفاقية مع الاتحاد السوفيتي تسمح لهم بإدخال قواتهم إلى يوغسلافيا في إطار التحالف ضد دول المحور.. وفي عام ١٩٤٥ أصبح رئيساً للوزراء وأعلن دستور جديد وبدأ ببناء الجيش اليوغسلافي الذي أصبح من أكثر الجيوش الأوروبية قوة.. كان تيتو من دعاة عدم التحيز وذلك سبب خلافه مع الاتحاد السوفيتي حيث استمرت العلاقات متوترة حتى بداية الستينات من القرن العشرين.. وقد كانت يوغسلافيا أكثر الدول الشيوعية انفتاح دبلوماسي.. وذلك لم يمنعها من قطع العلاقات مع تشيلي بعد إعدام سيلفادور ليندي.

الشيوعية المجالسية

هي نظرية ماركســـية قائمة على التحرر في نفس الوقت.. وتعارض المركزية في الديمقراطية الاجتماعية وفي اللينينية.. حيث تؤكد على حكم مجالس العمال في مواقع العمل والمجتمعات.. وتنادى

بإدارة المجتمع ككل من قِبل مجلس العمال الذي يتألف من مندوبين عن العمال يمكن عزلهم في أي لحظة.

اللوكسمبورجية

ترتكز على كتابات روزا لوكســـمبورج[٥٦] وتنادى بأن المركزية الديمقراطية ليســـت ديمقراطية حقيقية.. وتدعم في مفهومها فكرة الشـيوعية المجالسـية.. وتشـبه التحررية في الاعتماد على الجماهير في الثورة.. ولكنها ترى أهمية الحزب الثوري.. وترفض سياسة الإصلاحات الديمقراطية الاجتماعية.. واشتهرت روزا بنقد كلٍ من لينين وتروتسكي.

زوتشية

وهى أيديولوجية نابعة من كوريا الشـــمالية.. وتوصــف بأنها التطبيق الخلاق للماركســية اللينينية.. وتســتبدل العمال بالعســكريين كقوة ثورية رئيســية.. ووفقاً لما نَظَرَ له «كيم جونج إيل»[٥٧] يجب أن يكون للشعب استقلاله الخاص في الفكر والسياسة.. مع اكتفاء ذاتي اقتصادي.. ومقدرة ذاتية في الدفاع عن كيانه.. وبلده وقت اللزوم.. ويجب أن تخدم السياســة تطلعات الجماهير وبناء الثورة.. وأن أسـلوب الثورة والبناء يكون وفقاً للبلد.. وأهم عمل ثوري هو التعبئة الفكرية الشيوعية للجماهير.

---

(٥٦) روزا لكسمبورج بولندية من أسرة يهودية عملت بالتجارة (ولدت في ٥ مارس ١٨٧٠ أو ١٨٧١ – وتوفيت فى ١٥ يناير ١٩١٩) تبنت الاشتراكية وانتسبت للحزب الماركسي البروليتاري منذ حداثتها.. غادرت بولندا الروسية سنة ١٨٨٩ لتنضم إلى الثوريين المنفيين الروس بزعامة بليخانوف في زيورخ حيث درســـت العلوم ونالت شـــهادة الدكتوراه.. هاجرت إلى ألمانيا وتزوجت عاملاً ألمانياً واكتســبت بذلك الجنســـية الألمانية لكي تتاح لها فرصـــة العمل في صــفوف أكبر الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في أوروبا.. وعندما اندلعت الثورة الروسية سنة ١٩٠٥ عادت إلى وارسو لكي تشارك بها فقبض عليها وأفرج عنها في العام التالي.. عادت إلى برلين حيث كتبت «تراكم رأس المال» ســـنة ١٩١٣ الذي يعتبر مســـاهمة فكرية ماركسية رئيسية.. ثم تزعمت مع كارل ليبكنخت الجناح المتطرف من الحزب الاشتراكي الديمقراطي.. وعارضت الحرب العالمية الأولى.. ثم نظرية لينين حول كون الحزب الشيوعي أداة البروليتاريا المطلقة وكذلك نظرية لينين حول حق القوميات في تقرير مصــيرها.. أســســت مع ليبكنخت جماعة ســبارتاكوس وحولته إلى الحزب الشــيوعي الألماني وكتبت برنامجه بنفسها.. استنكرت «الإرهاب البلشفي» في روسيا سنة ١٩١٨-١٩١٩. في مطلع سنة ١٩١٩ أي بعد شهرين من إعلان ليبكنخت للجمهورية الاشــتراكية الألمانية اغتيلت معه من قِبل جماعة يمينية عســكرية متطرفة وبذلك قضـــي على ثورتهما في المهد.

(٥٧) كيم جونج (٣ ديسمبر ١٩٢٥ - ١٨ أغسطس ٢٠٠٩) سياسي كوري جنوبي شغل منصب رئيس كوريا الجنوبية بين عام ١٩٩٨ و٢٠٠٣ ويعتبر أول زعيم كوري جنوبي يقوم بزيارة إلى كوريا الشـــمالية.. حصـــل عام ٢٠٠٠ على جائزة نوبل للسلام وذلك لمساعيه للتقريب بين الكوريتين.. بدأ مسيرته السياسية سنة ١٩٥٤ دخل البرلمان كنائب سنة ١٩٦١خاض الانتخابات الرئاسية سنة ١٩٧١ رغم المصاعب التي كان يفرضها الحكم الديكتاتوري الذي قام بحبسه وتهديده ومن ثم منعه من العمل السـياسـي لأكثر من عقد من الزمن.. تم الحكم عليه بالإعدام سنة ١٩٨٠ وذلك عقب انقلاب في السلطة ونشوب موجات احتجاج في معقله السياسي.. ثم تم تخفيف حكم العقوبة إلى عشرين سنة حبس وذلك عقب تدخل الولايات المتحدة التي عاش فيها بالمنفى. عاد إلى كوريا الجنوبية سنة ١٩٨٥ كزعيم للمعارضة.. وخاض كلاً من انتخابات ١٩٨٧ و١٩٩٢ الرئاسية ولكنه خسر فيهما.. وأخيراً نجح فى الفوز بانتخابات سنة ١٩٩٧.

الشيوعية التحررية

ترتبط بميخائيل باكونين[٥٨] وتقوم على مبدأ يربط من خلال الشيوعيون التحرريون الدولة بالرأسمالية.. نظر لها «بيتر كروبوتكين»[٥٩] ونادى بالتحول الثوري للمجتمع.. وترتكز على النقابات بدلاً من الأحزاب في التغيير الثوري.. وتدعم الشيوعية التحررية التنظيم الاجتماعي الحر الذي يقوم على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج.. وعلى الديمقراطية المباشرة.. وعلى سلطة مجالس العمال بالتوافق مع الحرية الفردية والديمقراطية.

التجربة الستالينية

أما ما يمكننا قوله هنا وتسميته بالتجربة الستالينية فهي إشارة إلى النظام السياسي للبلاد من خلال التطبيق الشيوعى تحت قيادة ستالين.. والتى قامت على ما أسماه هو بالخطة الخمسية لتسريع حركة التصنيع.. وفيه ربط ستالين (الماركسية – اللينينية) بالقومية الروسية.. بالاشتراكية في نمطٍ واحد..

وفي عام ١٩٠٥ تم أول لقاء بين ستالين ولينين في الكونفرس الحزبي الذي عقده في فنلندا.. وعملوا سوياً على صياغة القرارات السياسية للكونفرس.

وفي أبريل عام ١٩٢٢ اقترح لينين على قيادات المؤتمر بأن يكون ستالين رئيساً للحزب لما يتمتع به من كفاءات قيادية وفكرية وتنظيمية.. وحدد ما يراه من سلبيات وإيجابيات موجودة في شخص ستالين في نفس الوقت.

ستالين وإلا.. فأنتم أحرار

أكد لينين على أعضاء المؤتمر.. أنه في حالة وجود رفيق آخر لديه مواصفات أفضل من المواصفات التي يملكها ستالين.. فأنتم أحرار أيها الرفاق في اتخاذ القرار الجماعي والنهائي لصالح الحزب ووحدته.

---

(٥٨) يذكر باكونين كشخصية رئيسية في تاريخ اللاسلطوية ومعارضاً للماركسية وخصوصا فكرة ماركس بديكتاتورية البروليتاريا.. أثر في العديد من المفكرين في العصر الحديث.. اسمه بالكامل ميخائيل باكونين (١٨١٤-١٨٧٦) كان ثورياً روسياً معروفاً ومنظراً للاسلطوية الجمعوية.. ولد في الإمبراطورية الروسية لعائلة روسية من طبقة النبلاء.. وأمضى شبابه كضابط صغير في الجيش الإمبراطوري الروسي.. ثم انسحب من الخدمة العسكرية سنة ١٨٣٥ ورغم سوابقه الإجرامية لاقى باكونين نجاحا وشهرة ضمن الشباب الراديكالي الروسي والأوروبي أيضا.. تنبأ بكومونة باريس.. بقي باكونين نشيطا جدا في المؤتمر اللاسلطوي والحركة الأوروبية الاشتراكية.. من ١٨٧٠ حتى ١٨٧٦ كتب عدة مؤلفات مشهورة كالسلطوية واللاسطوية والله والدولة.. مات في ١٨٧٦.

(٥٩) بيوتر أو بيتر كروبوتكين أو الأمير كروبوتكين (١٨٢١-١٩٢١).. جغرافي روسي.. كان من أوائل المنظرين للحركة التحررية (الأناركية أو اللاسلطوية) ولد في موسكو وتعلم في سان بيترسبرج.. خدم في الجيش من عام ١٨٦٢ حتى عام ١٨٦٧ وخلال هذه المدة قاد حملتيَّ اكتشاف ناجحتين في صربيا ومنشوريا.. اللتين أنتجتا معلومات جغرافية قيمة.. وفي عام ١٨٦٧ عاد كروبوتكين إلى سان بيترسبرج.. حيث عُيِنَ كموظف في الجمعية الروسية الجغرافية وساهم في اكتشاف أنهار الجليد في فنلندا والسويد بين عامي ١٨٧١ و١٨٧٣ بعد عودته لروسيا بدأ دعاية تحررية بين الفلاحين والعمال وفي عام ١٨٧٤ اعتقل وسجن.. هرب كروبوتكين من السجن بعد عامين وانضم للجمعية التحررية الأممية.. بعدها أقام في فرنسا.. ثم عاش وعمل في إنجلترا لثلاثين عاماً.. بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧ عاد إلى وطنه.. وعاش بالقرب من موسكو.. ولكنه لم يأخذ أي دور نشط في الحياة السياسية السوفيتية.. وكان الموضوع الرئيسي لكتابات كروبوتكين هو إسقاط كل أشكال السلطة من أجل إقامة مجتمع شيوعي كلي يقوم على مبدأ المعونة المتبادلة والتعاون.. بدلاً من المؤسسات الحكومية.. وكتب كروبوتكين بكل من اللغتين الفرنسية والإنجليزية.. تتضمن كتاباته ذكريات الثوار (١٨٨٥).. الحقول.. المصانع.. وورش العمل (١٨٩٩).. الإرهاب في روسيا (١٩٠٩).. الأخلاق.. الأصل والتطور (١٩٢٤).

وأخيراً تم انتخاب ستالين كرئيس للحزب وبالإجماع.. وحتى الرفاق الذين لا يحبون ستالين صوتوا لصالحه.. لأنهم يدركون الصفات القيادية التي يمتلكها ستالين.

ولعب ستالين دوراً كبيراً حول تعزيز البنية التنظيمية والفكرية للحزب وتعزيز دوره وسط الجماهير.. وتمكن هو ورفاقه من بناء أول تجربة اشتراكية تطبيقية حقيقية لم تشهدها المجتمعات من قبل.

وتجمع كافة المصادر التاريخية أن الجانب الأكبر والأهم في عملية البناء الاشتراكي قد حدثت بالدرجة الأولى خلال فترة حكم ستالين.. وحققت نتائج سياسية.. واقتصادية.. واجتماعية وعسكرية كبرى.. واستطاع ستالين أن يحول النظرية إلى واقع تطبيقي وملموس.

وفى نفس الوقت فإن هذه المنجزات الكبرى واجهت خصوم قوى الثورة المضادة في الداخل والخارج.. منذ العشرينات حتى الخمسينات واستمرت قوى الثورة المضادة في مقاومتها حتى الخمسينات من القرن العشرين.. ولكن استطاع ستالين والحزب والشعب تصفية خصوم الثورة في الداخل.. وإحباط مخطط الإمبرياليين الذين قدموا الدعم المادي والمعنوي والعسكري إذ قدمت (١٤) دولة إمبريالية دعمها لقوى الثورة المضادة داخل الاتحاد السوفيتي ومنها: أمريكا وبريطانيا وألمانيا واليابان وفرنسا.

في ٢١ يناير ١٩٢٤ وخلال انعقاد المؤتمر الثاني لنواب الشعب السوفيتي وبعد وفاة لينين قال ستالين في كلمته التى ألقاها فى المؤتمر:

(إننا سنحافظ عالياً ونصون بأمانة لقب عضوية الحزب.. وسنعمل وبكل قوانا على تعزيز وحدة العمال والفلاحين.. وسوف نحافظ على وحدة حزبنا كما نحافظ على قرة العين وسوف نحافظ ونعمل وباستمرار على تعزيز دكتاتورية البروليتاريا.. وسنعمل وبثبات على وحدة الجمهوريات السوفيتية وتطورها.. كما يجب علينا أن نناضل من أجل وحدة العمال في العالم).

ملخص التجربة

لقد واجهت ثورة أكتوبر الاشتراكية حروبًا عديدة وصعوبات اقتصادية وعسكرية.. ولكن بالرغم من كل هذه الصعوبات فإن ثورة أكتوبر بقيادة لينين – ستالين استطاعت تحقيق النصر على خصومها.. وفى نفس الوقت تحقيق إنجازات كبرى تحققت من حيث المبدأ في زمن ستالين خلال الفترة من عام ١٩٢٢ وحتى عام ١٩٥٣.

ستالين كلمة السر

والسبب يعود إلى الموقف المبدئي والحاسم إلى ستالين من مختلف القضايا والتفاف الشعب السوفيتي حول هذه القيادة التاريخية الفريدة من نوعها.

كانت سياسة ستالين الداخلية والخارجية امتداداً لسياسة لينين.. واستطاع ستالين أن يحول مبادئ وقوانين النظرية إلى الميدان التطبيقي الملموس خلال فترة حكمه.. وخلال هذه الفترة لعب ستالين دوراً رئيسياً وكبيراً وهاماً في توحيد الجمهوريات في دولة واحدة.. ألا وهي اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية.. مشيراً إلى أهمية وحدة هذه الجمهوريات من حيث توفر كل الأسس والمقومات للوحدة في الميدان السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري.

العامل الاقتصادى

كما أكد ستالين على أهمية العامل الاقتصادي في وحدة هذه الجمهوريات مشيراً إلى توفر مواد الخام الأولية.. وقسم العمل بين هذه الجمهوريات.. بنظام تبادلى رائع فعلى سبيل المثال :

- جمهوريات الجنوب تزود الدولة السوفيتية بالحبوب والخضروات والفواكه.. جمهوريات الشمال تزود الدولة السوفيتية بالطاقة والصناعات الثقيلة..

العامل العسكري

كما أكد على أهمية دور الجبهة العسكرية الموحدة والتي تتطلب قيام جيش سوفيتي واحد قوي يؤمن ويضمن أمن وحماية وسلام السلطة السوفيتية والاشتراكية ومنجزاتها وتم تأسيس الجيش الأحمر في٢٣ فبراير سنة ١٩١٨ وعمل على تطوير وتعزيز وتطوير القدرة العسكرية للجيش الأحمر وتزويده بالأسلحة الحديثة فعلى سبيل المثال زاد الإنفاق العسكري من ٢٣ مليار روبل في عام ١٩٣٨ إلى ٥٦ مليار روبل عام ١٩٤١ وخلال الحرب العالمية الثانية وخلال السنة الأولى منها زاد إنتاج الطائرات الحربية من ٨٤٠٠ في عام ١٩٣٨ إلى ١١٦٠٠ في عام ١٩٤٢ والدبابات من ٣٨٠٠ إلى ٦٢٠٠ والمدافع من ٢٢١٠٠ إلى ٤٠٥٠٠ لنفس الفترة.

الوحدة

كما أكد أيضاً على أن وحدة هذه الجمهوريات تقوم على أساس ومبدأ الطوعية والديمقراطية والتكافؤ.. كما أكد ستالين على أهمية البناء الاشتراكي ودور الحزب والعمال في ذلك مشيراً إلى أن السلطة السوفيتية والاشتراكية تقوم من حيث المبدأ على العمل الهادف والواعي والمخطط والذي يغيب فيه الاستغلال.

وأن الاشتراكية تكافح ضد كل أشكال الظلم والتعسف وهي تقوم على مبدأ العمل الجماعي الواعي والهادف.. وأشار ستالين إلى أن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ورأس المال والاستغلال البشع للجماهير ما هي إلا سمات رئيسية ملازمة للنظام الرأسمالي.

وهذه السمات هي التي أدت إلى تقسيم المجتمع إلى طبقتين :

- طبقة الأغنياء وهم دائما يشكلون الأقلية في أي مجتمع رأسمالي..
- وطبقة الفقراء وهم يشكلون الغالبية العظمى في المجتمع..

وأن هذه السمات كانت ولا تزال أحد أهم الأسباب الرئيسية لإعلان ونشوب الحروب غير العادلة من قبل النظام الرأسمالي وخاصة في مرحلته المتقدمة الإمبريالية إن ما تقوم به الإمبريالية الأمريكية اليوم ضد شعوب العالم ما هو إلا حقيقة موضوعية وملموسة على تنبؤات لينين وستالين.

الدور السياسي

كان لستالين دورًا كبيرًا في تعزيز وتطوير دور الحزب والسلطة السوفيتية في عملية البناء الاشتراكي والحفاظ عليها من قبل الخصوم الأيديولوجيين على الصعيدين المحلي والعالمي خلال فترة حكمه وهناك حقيقة موضوعية وهي أن ستالين هو الذي شيد الدولة العظمى وهو الذي بنى وأرسى القاعدة الصناعية والزراعية والتكنولوجية والعسكرية وهو من أعطى الأولوية والأهمية لتطوير قطاع إنتاج وسائل الإنتاج.. على قطاع إنتاج وسائل الاستهلاك.. وجاءت هذه الأهمية نتيجة للظروف

والأخطار الصعبة والمحدقة التي واجهتها ثورة أكتوبر الاشتراكية داخلياً وخارجياً إذ قام الغرب الإمبريالي بدعم مالي وعسكري لقوى الثورة المضادة من أجل القضاء على السلطة السوفيتية والاشتراكية.

التنظيم المخابراتى

أعطى ستالين دوراً هاماً وكبيراً لجهاز المخابرات والاستخبارات العسكرية السوفيتية على الصعيدين المحلي والدولي وهذه الأهمية الاستثنائية قد أملتها الظروف الصعبة واشتداد الصراع الأيديولوجي والاقتصادي والاجتماعي في تلك المرحلة وكان يشرف مباشرة على نشاط هذه المؤسسة وخاصة فيما يخص نشاطها الخارجي والهدف من كل ذلك هو العمل على إحباط وإفشال قوى الثورة على الصعيدين الداخلي والخارجي والدليل على ذلك أنه خلال عام ١٩٤٠ وبداية عام ١٩٤١ تم القضاء على ٦٦ من كبار العملاء السريين الأجانب و١٦٠٠ عميل ومناصر للفاشية الألمانية ومنهم ١٤٠٠ عميل في القسم الغربي من الاتحاد السوفيتي كما استطاع هذا الجهاز أن يقوض وبشكل كامل على شبكة التجسس الألمانية المتواجدة في الاتحاد السوفيتي.

القضاء على الثورة المضادة

استطاع الشعب السوفيتي والحزب الشيوعي السوفيتي بقيادة ستالين تحقيق النصر على قوى الثورة المضادة خلال الفترة من عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٢٢ إذ تم إعدام ١٢٧٣٣ شخصاً منهم ٥١٠٦ شخصاً من قوى الثورة المضادة و٧٦٢٨ شخصاً من اللصوص وقطاع الطرق والمرتشين والهاربين من تأدية الخدمة العسكرية.. كما قام ستالين بعد تصفية جيوب قوى الثورة المضادة بإدخال سياسة التصنيع وإدخال التعاون الزراعي وتشريع دستور اشتراكي للبلاد وغير ذلك.

كما يُلاحظ أن ستالين رفض الفكرة القائلة بأن الاشتراكية قد انتصرت وبشكل نهائي إذ قال إنها فكرة سابقة لأوانها كما رفض فكرة تروتسكي حول الثورة العالمية بل أكد ستالين على أهمية اتخاذ مجموعة من الإجراءات والتدابير السياسية والاقتصادية والأمنية والعسكرية وعلى الصعيدين من أجل الحفاظ على السلطة السوفيتية والنظام الاشتراكي من قبل الخصوم الأيديولوجيين.

كما هو معروف وخلال فترة الثلاثينيات من القرن الماضي واجه النظام الرأسمالي العالمي وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية أزمة عامة وشاملة شملت جميع مرافق الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية... فعلى سبيل المثال هبط الإنتاج المادي في أمريكا بنسبة تراوحت ما بين ١٠ إلى ١٥ بالمائة.. وبلغ عدد العاطلين عن العمل ما بين ١٥ إلى ١٧ مليون شخص عاطل عن العمل ناهيك عن تفشي الجريمة في المجتمع الأمريكي في حين أن الاقتصاد الاشتراكي السوفيتي وخلال تلك الفترة قد حقق معدلات نمو اقتصادي كما حدث في القطاع الصناعي إذ تراوحت مابين ٢٥% إلى ٣٠% وبنفس الوقت لوحظ أن القطاع الزراعي لم يحقق معدلات نمو اقتصادي كما حدث في القطاع الصناعي ويعود أحد أهم الأسباب الرئيسية إلى وجود الكولاك وتأثيراتهم السلبية على الفلاحين وعلى هذا الأساس فإن طبقة الأغنياء أصبحت معرقلة لعملية التطور الاقتصادي – الاجتماعي في الريف السوفيتي ونتيجة لذلك تم اتخاذ قراراً بتأميم الأرض الزراعية وإقامة الكلخوزات والسفخوزات الزراعية.

التصنيع والسلطة المركزية

كد ستالين على مسألة غاية في الأهمية وهي أن سياسة التصنيع تحتاج إلى سلطة مركزية وهي المفتاح الرئيسي لعملية البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي.. كما أكد أيضا على أهمية إدخال التكنولوجيا للقطاعات الاقتصادية وخاصة القطاعات الإنتاجية منها.. والعمل على تعزيز دور ومكانة الطبقة العاملة والفلاحين في هذه القطاعات. كما اعتبر أن إنتاجية العمل وزيادتها هي أحد أهم المؤشرات الاقتصادية لنجاح الاقتصاد الاشتراكي لأن ذلك سيؤدي إلى زيادة الإنتاج المادي وهذا يؤدي بدورة إلى خفض كلفة الإنتاج وبالتالي يؤدي ذلك إلى انخفاض أسعار المنتجات وهكذا سوف تتحقق زيادة حقيقية للدخل الحقيقي للمواطنين أي تحسين المستوى المعيشي للعمال وهذا هو الهدف الرئيسي للاقتصاد الاشتراكي.

نتائج الحرب العالمية الثانية

تكبد الشعب السوفيتي خسائر بشرية ومادية كبيرة في حربة ضد الألمان خلال فترة الحرب العالمية الثانية.. إذ قام الجيش الألماني الفاشي بحرق وهدم وتدمير ما يلي:

- ١٧١٥ مدينة كبيرة وصغيرة .
- أكثر من ٧٠ ألف قرية زراعية.
- أكثر من ٦ مليون مبنى.
- ٣١٨٥٠ مصنع ومعمل.
- تم تخريب ٦٥ ألف كيلو متر من خطوط السكك الحديدية .
- ٤١٠٠ محطة قطار .
- ٣٦ ألف مركز بريد ومحطة هاتف.
- ٤٠ ألف مستوصف ومستشفى.
- ٨٤ ألف مدرسة ومعهد وجامعة ومؤسسة بحث علمية .
- ٤٣ ألف مكتبة.

كما هرب إلى ألمانيا:

٧ مليون حصان و١٧ مليون رأس من الأبقار و٢٠ مليون رأس خنزير و٢٧ مليون رأس من الأغنام والماعز..

بلغت تكلفة الحرب بالنسبة للجانب السوفيتي ٦٧٩ مليار روبل..

وبعد النصر الذي حققه السوفيت والحزب الشيوعي السوفيتي بقيادة ستالين على النازية الألمانية وما ألحقت به من خسائر بشرية ومادية كبيرة حدد ستالين ثلاث مهام رئيسية وهي :

- **المهمة الأولى:** ضرورة توفير وضمان الطعام والملبس للمواطنين والعمل التدريجي على إلغاء نظام البطاقات التموينية بالنسبة للسلع الغذائية الضرورية فيعتبر الخبز السلعة رقم ١ يجب أن يتم توفيرها للمواطنين وبسعر شبه مجاني.

- **المهمة الثانية:** العمل على وضع خطة وبشكل سريع لإعادة ما خربته الحرب للمدن والقرى والمصانع والمعامل والمدارس والمستشفيات والطرق.. وأن تحقيق هذا يعني عودة الحياة الطبيعية للمواطنين والاقتصاد السوفيتي.
- **المهمة الثالثة:** من أجل إنجاز المهمة الأولى والثانية فنحن نحتاج إلى إعداد كادر علمي ومهني ونحتاج إلى رأس مال ومواد الخام الأولية وأن كل هذه المقومات يمكن تنفيذها وهي موجودة لدى الشعب السوفيتي.

التجربة الستالينية في أرقام:

حققت سياسة ستالين على الصعيد السياسي والاقتصادي – الاجتماعي والثقافي والعسكري إنجازات كبيرة وغاية في الأهمية فعلى سبيل المثال:

- عام ١٩٤٩ تم صنع القنبلة الذرية.
- عام ١٩٥٣ تم صنع القنبلة الهيدروجينية.
- عام ١٩٥٤ تم تشييد أول محطة كهروذرية في العالم.
- عام ١٩٥٧ثم غزو الفضاء.
- عام ١٩٥٩ ثم صنع أول غواصة ذرية حربية في العالم.
- عام ١٩٦١ أصبحت روسيا أول بلد يغزو الفضاء برجل الفضاء المعروف يوري جاجارين..
- حصل ١٠ من العلماء السوفيت خلال فترة حكم ستالين على جائزة نوبل للسلام..

ومقارنة مع عام ١٩١٣ يمكننا القول أن الأرقام تضاعفت خلال الفترة من عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٢٢ على النحو التالى:

- زاد الإنتاج الصناعي بـ (٥) مرات .
- القطاع الزراعي بـ (٥) مرات.
- الدخل القومي بـ (٤) مرات .

ــ كما زاد عدد سكان روسيا ــ الاتحاد السوفيتي من ١٣٠ مليون نسمة عام ١٩١٧ إلى ١٦٥ مليون نسمة في عام ١٩٣٣ .

وفي عام ١٩٢٦ بلغت نسبة الأمية ٦٠ بالمائة والمتعلمين بنسبة ٤٠ بالمائة أما في عام ١٩٣٩ فبلغت نسبة المتعلمين ٨١ بالمائة والأمية بنسبة ١٩ بالمائة.. وأخيراً تم القضاء على الأمية نهائياً.

حقق الاقتصاد الاشتراكي السوفيتي خلال الفترة ١٩٣٣-١٩٣٨ من حكم ستالين الآتي:

- زاد الدخل القومي بـ٢,١٦ مرة.
- زاد صندوق المرتبات والأجور بـ ٢,٢٦ مرة .

ـ زادت إنتاجية الحبوب في الزراعة ب٢,٣٦ مرة .

ـ زادت ميزانية الحكومة للجانب الاجتماعي والثقافي بـ (٦) مرات.

ـ تضاعف عدد الدارسين.. وتم بناء ٢٠٦٠٧مدرسة منها ١٦٣٥٣ مدرسة في الريف السوفيتي و٤٢٥٤ مدرسة في المدينة.

ـ وخلال الفترة من عام ١٩٣٠ وحتى عام ١٩٤٠ احتل الاتحاد السوفيتي المرتبة الثانية في العالم في مجال التصنيع والإنتاج الصناعي وخلال هذه الفترة زاد الإنتاج الصناعي بـ (٧,٧) مرة

ـ زاد إنتاج الماكينات الثقيلة.. وصناعة المعادن بـ (٣٠) مرة لنفس الفترة بالمقارنة مع عام ١٩١٣ وأن أكثر من ٨٠ بالمئة من المؤسسات الصناعية تم بناؤها في ظل السلطة السوفيتية.

ـ وبعد ٥ سنوات من انتهاء الحرب العالمية الثانية أي خلال الفترة (١٩٤٦ـ١٩٥٠) زاد الإنتاج الصناعي في الاتحاد السوفيتي بـ ١٢٣ بالمائة بالمقارنة مع عام ١٩٢٤.

ـ حققت الاشتراكية السوفيتية خلال الفترة من عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٩١ نجاحات كبيرة في المجال الاقتصادي إذ زاد الدخل القومي بـ (١٧٠) مرة وزاد حجم الإنتاج الصناعي بـ (٥٣٠) مرة.

ـ وزاد حجم الإنتاج الزراعي بـ (٥,٥) مرة

ـ كما زادت حصة الاتحاد السوفيتي في الإنتاج الصناعي العالمي من ١ % في عام ١٩٢٠ الى ٢٠ % حتى أواسط الثمانينات

ـ باختصار بلغ معدل النمو الاقتصادي خلال الفترة حكم ستالين (١٩٢٢ـ١٩٥٣) وبدون حساب الصناعات الحربية ما بين ١٣ إلى ١٨ %.

وخلال ١٠ سنوات (١٩٤٦ـ١٩٥٥) تم إعادة بناء الاقتصاد الاشتراكي السوفيتي الذي خربتَهُ الحرب العالمية الثانية في حين كانت تشير تقديرات الخبراء الغربيين بأن الاقتصاد السوفيتي يحتاج إلى أكثر من ٥٠ سنة من أجل إعادة إعماره وفي عام ١٩٤٧ تم إلغاء نظام البطاقة التموينية وخلال الفترة من عام ١٩٥٠ وحتى عام ١٩٥٥ فإن السلطة السوفيتية عملت وباستمرار على تخفيض أسعار السلع الغذائية للمواطنين وتراوحت نسبة التخفيض ما بين ٣٠ إلى ٥٠ % مما ساعد هذا على خلق الرخاء الاقتصادي والاجتماعي للمواطنين كما أكد ستالين على أهمية تشجيع المبادرات الاشتراكية والمنافسة بين المؤسسات الاشتراكية.

كما أن كل النجاحات السياسية والاقتصادية – الاجتماعية والثقافية والعسكرية التي تحققت بعد وفاة ستالين كانت تعتمد على الأسس التي وضعها ستالين بالدرجة الأولى.. فعلى سبيل المثال وفي المجال العلمي وخلال الفترة من عام ١٩٧٠ وحتى عام ١٩٨٠ تم بناء أكثر من ٥٠٠٠ معهد للبحوث العلمية و٤٠ ألف مكتب للتصميم و ٢٣٠٠ خبيراً في مجال الصناعة فقط و٣٠٠٠ مختبر علمي.. ناهيك عن امتلاك للاتحاد السوفيتي السلاح النووي والكيماوي والصواريخ البالستية وغيرها.

وللتجربة سلبياتها

ليس نبياً

لم يكن ستالين نبياً يوحى إليه.. ولا شخصاً معصوماً من الخطأ.. أو النواقص التي يمكن لها أن تحدث في عملية التحولات السياسية والاقتصادية – الاجتماعية.

وما حدث من أخطاء في التجربة الستالينية من الخطأ أن نحملها لستالين وحده فقط.. بل يتحملها معه أيضاً بقية قادة الحزب والسلطة.

كما يجب أن ننظر إلى هذه النواقص بموضوعية من حيث تحديدها ومناقشتها آخذين بعين الاعتبار الظروف المعقدة والصعبة التي واجهت الثورة الاشتراكية من عام ١٩١٧ وحتى عام ١٩٥٣ لأن هذه المرحلة الخطيرة قد عكست حدة الصراع السياسي والأيديولوجي بين قوى الثورة الاشتراكية.. وقوى الثورة المضادة في الداخل والخارج معاً.

ومن الضروري أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار الدور التاريخي للسلطة السوفيتية بقيادة لينين- ستالين على الصعيدين الداخلي والخارجي.

وكذلك يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار المشاكل السياسية والاقتصادية – الاجتماعية المعقدة وما يشكله الإتحاد السوفيتي من مساحة شَكلَت سُدس مساحة العالم.

إن النواقص والأخطاء التي وقعت في زمن ستالين لم تكن مقصودة أو مخطط لها فهي أخطاء ونواقص حدثت في تلك المرحلة الزمنية الصعبة ولها أسبابها الموضوعية والذاتية وأن تضخيم وتشويه وافتعال هذه النواقص من قِبل الإعلام البرجوازي (الديمقراطي) الروسي يقف وراؤها العناصر غير الروسية وخونة الحزب من التحريفيين والانتهازيين والوصوليين على الصعيد الداخلي وقوى الثالوث العالمي على الصعيد الخارجي كما نعتقد سوف تستمر هذه الحملة اللاموضوعية من أجل خلق إرهاب نفسي للمواطنين السوفيت – الروس ولفترة غير قصيرة.

إن ستالين دخل التاريخ من أوسع أبوابه النظيفة كمناضل صلب لمبادئه وفكره وأهدافه فالعظماء والأبطال الثوريين والتقدميين لم يتركوا من ورائهم إلا تراثهم الفكري والعلمي والثقافي الكبير والذي لا يمكن أن يقدر بثمن مادي ولصالح البشرية جمعاء فإن هؤلاء القادة كانوا زاهدين الدنيا ولديهم هدفاً رئيسياً وهو تحقيق الرخاء الاقتصادي والاجتماعي والاستقرار والسلام للبشرية التقدمية وأن ماركس وإنجلز ولينين وستالين وماو، ما هم إلا أمثلة حية على ذلك.

إن ستالين لم يترك أي شيء سوى إنجازاته الكبرى ومواقفه المبدئية المعروفة ومساهماته الفكرية في إغناء النظرية الماركسية – اللينينية فالتاريخ يخلد القادة الأبطال الذين دافعوا عن مصالح شعوبهم ومبادئهم وأفكارهم السامية أما خونة الفكر فمصيرهم دائماً في المستنقع وفي مزبلة التاريخ والأمثلة كثيرة من مثل هذه النخبة الفاسدة.

///

٧.رجال حول ستالين

في حياة ستالين العديد من الشخصيات التى لعبت أدواراً هامة ومؤثرة في سيرة حياته.. وكذلك في مجريات الأمور في بلاده.. وجميعها أسماء معروفة تاريخياً بشكلٍ كبير وواسع معظمهم كانوا مؤمنين به.. وبعضهم كما سنرى كانوا يعارضونه، وفي هذا الفصل نتوقف لنتعرف عن قرب على أهم تلك الشخصيات.. والدور الذى لعبته في حياة ستالين.. وتجربته..

■ تروتسكى الصديق المغضوب عليه

«تروتسكي» اسمه الحقيقي ليف دافيدوفيتش برنشتاين.. وسمى نفسه بهذا الاسم أثناء هروبه من بطش القيصر.. وكان اسم تروتسكي هو اسم حارس السجن الذي أودع فيه في سيبيريا.. وهو ثوري بلشفي ومثقف ماركسي وسياسي مؤثر في بدايات الاتحاد السوفيتي.

كان كوميسار- أى مفوض شعبي - للعلاقات الخارجية.. وبعدها أحد مؤسسى وقادة الجيش الأحمر.. والكوميسار الشعبي لقيادة الحزب.

كان أيضاً مؤسس وعضو في المكتب السياسي السوفيتي..

في سنة ١٩٢٧ تعرض تروتسكي.. هو ومناضلو المعارضة اليسارية للطرد من الأحزاب الشيوعية.. وشن الستالينيون الذين اعتمدوا في السابق على اليمين من أجل إلحاق الهزيمة بالمعارضة اليسارية.. حملة شرسة لتعقب مناصريهم.. وانعكس هذا في سياسة اليسار المتطرف التي تبنتها الأممية الشيوعية سنة ١٩٢٨ التى كانت تعني إدانة كل المجموعات السياسية الأخرى ماعدا الحزب الشيوعي باعتبارها تمحكاً بالفاشية.. وظهرت مسميات جديدة مثل :

«الاشتراكيون الفاشيون».. «الليبراليون الفاشيون».. «التروتسكيون الفاشيون».. وهو ما أدى إلى إحباط العمال وخدمة مصالح عصابة هتلر.

وبعد صراع على السلطة مع ستالين.. تم طرده من الحزب الشيوعي وإبعاده عن الاتحاد السوفييتي.. وتم اغتياله لاحقاً على يد عميل سوفيتي يدعى (رامون ميركادير) في المكسيك وتم دفنه هناك.

له عدة مؤلفات هامة .. أشهرها هو ما تم ترجمته إلى العربية ولغات أخرى وهذه المؤلفات هي:

- «تاريخ الثورة الروسية»
- «الثورة الدائمة- نتائج وتوقعات»
- «الثورة المغدورة»

وكانت أفكار تروتسكي هى نواة النظرية الشيوعية المعروفة باسم التروتسكية.

■ مولتوف (المطرقة) الحليف المخلص

مولوتوف هو قائد سوفيتي كان من أبرز معاوني ستالين.. امتد نشاطه السياسي من بداية الثورة البلشفية حتى عام ١٩٥٧ عمل كذلك في السلك الدبلوماسي كوزير خارجية وكان رئيساً للحكومة السوفيتية منذ عام ١٩٣٧-١٩٤١ حيث استطاع أن يسيطر على الأوضاع الداخلية المتردية بقيامه بتعديل الدستور السوفيتي الذي سُمِيَّ أخيراً بتعديل مولوتوف.. وبموجب هذا التعديل تمتعت الجمهوريات المكونة للاتحاد السوفيتي بحق التمثيل الخارجي.. وعقد المعاهدات الدولية.. وإرسال البعثات الدبلوماسية إلى الخارج.. والعضوية في المنظمات الدولية أيضاً.

وُلِدَ مولوتوف في ٩ مارس ١٨٩٠ بمدينة كوكارا وكان لقبه الأصلي «سكريبيان».. وانضم إلى الحزب الشيوعي عام ١٩٠٦ واتخذ اسم مولوتوف لقباً له وهو اسم يعني (المطرقة)

اعتقل للمرة الأولى سنة ١٩٠٩ وأُبعِدَ إلى سيبيريا لمدة سنتين.

بعدها أصبح أحد محرري الجريدة البلشفية برافدا حيث التقى بستالين الذي كان المحرر الرئيسي لها.

ثم اعتُقِلَ مرة أخرى عام ١٩١٣ إلا أنه تمكن من الهروب عام ١٩١٥ والذهاب إلى سان بطرسبرج..

وبعد اندلاع الثورة البلشفية عين مولوتوف أميناً عاماً للحزب الشيوعي عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٢ (عندما تولى ستالين المنصب).

أصبح مولوتوف حليفاً رئيساً لستالين وتمكن من الانضمام إلى المكتب السياسي للحزب وهي أعلى هيئة في الحزب.. لم يتوان مولوتوف من تأييد ستالين في كل صراعاته السياسية ضد خصومه.. وعُيِنَ رئيساً للوزراء عام ١٩٣٠ خلفاً لريكوف.. كذلك عُيِنَ مولوتوف وزيراً للخارجية عام ١٩٣٩ خلفاً للتفينوف الذي كان من مؤيدي نظرية التعامل الدبلوماسي مع دول غرب أوروبا.

وكان مولوتوف هو المُوقع الرئيسي على المعاهدة السوفيتية- النازية إبان هجوم الألمان على الاتحاد السوفيتي.

كما كان مولوتوف هو الذي ألقى في الإذاعة خطاب إعلان الحرب على ألمانيا.. وكان كوزير خارجية هو أكثر الدبلوماسيين نشاطاً في اللقاءات مع دول الحلفاء.. بقي مولوتوف من أبرز القادة السياسيين بعد وفاة ستالين.. وبعد فشل جهوده وبقاء خورشوف في السلطة عزل مولوتوف عام ١٩٥٧ وطُرِدَ من الحزب الشيوعي عام ١٩٦١.

توفى مولوتوف عام ١٩٨٦ وكان قد سمح له آنذاك من الانخراط في الحزب الشيوعي.. ونشرت مذكراته عام ١٩٩٣.

■ ريكوف الحليف المتقلب

إليكسي إيفانوفيتش ريكوف هو أحد الثوار البلاشفة.. وزعيم سياسي للاتحاد السوفيتي خلال الفترة من ١٩٢٤ إلى ١٩٢٩ كان الزعيم الإسمي للدولة السوفيتية كرئيس للمجلس المفوضين للشعب.. وُلِدّ سنة ١٨٨٨ لعائلة ريفية تسكن المناطق القريبة من ساراتوف.

وفي عام ١٩٠٠ انضم إلى حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي..

وفي عام ١٩١٧ انضم إلى اللجنة المركزية البلشفية.. وفي أكتوبر انضم إلى اللجنة العسكرية الثورية التي نظمت ثورة أكتوبر.. وفي الحكومة البلشفية الجديدة أصبح مفوض الشعب للشؤون الداخلية حتى عام ١٩١٨ ثم انشق عن البلاشفة عندما رفض فكرة تشكيل حكومة ائتلافية لاحتكار السلطة لصالحهم.. سرعان ما عاد ليشارك من جديد في المجلس العسكري الثوري خلال الحرب الأهلية..

ثم خلف لينين رئيساً للحكومة في عام ١٩٢٤ وأيد بوخارين وستالين ضد تروتسكي.. حيث كان جزءاً من الجناح اليميني للحزب.. وعندما انشق ستالين عن بوخارين والجناح اليميني للحزب.. أُعفِيَّ ريكوف من مسؤولياته.. ثم استمر مع عدم ذكر اسمه إلى انتهاء عمليات التطهير الستالينية الرئيسية.. اتهم عام ١٩٣٨ مع آخرين بالتآمر مع تروتسكي ضد ستالين.. ثم أُدِين بعد محاكمة صورية وأُعدِمَ في ١٥ مارس ١٩٣٨.

///

■ بيريا.. الذراع اليمنى

بيريا هو سياسي سوفيتي عاش خلال الفترة بين تاريخي (٢٩ مارس ١٨٩٩ & ٢٣ ديسمبر ١٩٥٣) عمل رئيساً للأمن السوفيتي وجهاز البوليس السري في عهد ستالين.. بنهاية التصفية الكبرى والحملة التي نظمها ستالين لتطهير الحزب الشيوعي والمؤسسات الحكومية بين عامي ١٩٣٧-١٩٣٨ أصبح بيريا رئيساً للبرلمان ولاحقاً رئيساً للـــ NKVD و(هي منظمة شعبية للبوليس السري في عهد ستالين تولت القيام بعمليات القمع السياسي) وقام باختيار عناصرها بنفسه.

وُلِدَ بالقرب من أبخازيا حالياً.. والتحق بالبلاشفة في عام ١٩١٧ عندما كان طالب هندسة في باكو.. في عام ١٩١٩ عمل في خدمة الأمن في جمهورية أذربيجان الديمقراطية.. في عام ١٩٢٠ أو ١٩٢١ التحق بالبوليس السري البلشفي جيكا.. وهو فصيل من حركة الثورة الروسية تم تشكيله عام ١٩٠٣ إثر النزاع الذي حدث بين لينين ويوليوس موروتوف أعضاء الحزب الشيوعي.

في عام ١٩٢٤ تم قمع العصيان الوطني الجورجي وتم إعدام ١٠ آلاف شخص.. وتم منح بيريا وسام الراية الحمراء.. وعُين رئيساً لقسم البوليس السري OGPU في جنوب القوقاز..

وفي عام ١٩٢٦ أصبح رئيساً للبوليس السري في جورجيا.. وتم استقدامه ليلتحق بستالين.. وأصبح حليفاً له في صعوده للسلطة في الحزب الشيوعي والنظام السوفيتي.

ثم عُين عام ١٩٣١سكرتيراً للحزب الشيوعي ولإقليم جنوب القوقاز عام ١٩٣٢ وأصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي عام ١٩٣٤

وفي عام ١٩٣٥ أصـــبح بيريا من أكثر التابعيين الموثوق فيهم لدى ســـتالين.. وثبت موقعه في حاشيته.

وفى أغسطس عام١٩٤٨ استقدم ستالين بيريا إلى موسكو ليصبح رئيساً للـــ NKVD وهى الوزارة المسؤولة عن مراقبة قوى البوليس.. عام ١٩٤٩ أصبح بيريا العضو المرشح كمدير تنفيذي للحزب الشـــيوعي.. في ٢٦ يونيو ١٩٥٣ أعتقل بيريا وأصـــدرت المحكمة بحقه حكماً بالإعدام هو وجميع أنصـــاره.. ويًقال أن بيريا قبل إعدامه جثى على ركبتيه طلباً للرحمة ولكنه أعدم رمياً بالرصـــاص في ٢٣
ديسمبر ١٩٥٣

■ خروتشوف خليفة ستالين وعدوه الأول

نيكيتا خروتشوف هو زعيم شيوعى ورجل دولة سوفيتى.. حكم الاتحاد السوفيتي بعد وفاة ستالين ضمن لجنة ثلاثية للحكم لم تستمر طويلاً لينفرد هو بالحكم حتى عام ١٩٦٤ وتميز حكمه بالمعاداة الشديدة للستالينية.. وإرساء الدعائم الأولى لسياسة الانفراج الدولي والتعايش السلمي التي تعتبر ردة عن القواعد اللينينية.

وُلِدَ خروتشوف في ١٥ أبريل ١٨٩٤ بكالينكوفا بمقاطعة كورسك الواقعة على الحدود الفاصلة بين روسيا وأوكرانيا لعائلة يعمل معظم أفرادها في المناجم.. وعمل في البداية راعياً ثم عاملاً في مصانع الحديد والصلب.

وفي عام ١٩١٨ انتسب إلى الحزب الشيوعى.. وحارب إلى جانب الحرس الأحمر أثناء الحرب الأهلية.. وبعد انتصار الثورة والاستقرار.. اشتغل كعامل مناجم وانتسب إلى الجامعة العمالية عام ١٩٢٢ حيث أصبح أمين سر خلية شيوعية فيها.

وبعد أن أنهى دراسته في الجامعة العمالية تفرغ للعمل السياسى في الحزب الشيوعى الأوكرانى.

وفي عام ١٩٢٩ أوُفد إلى موسكو للدراسة في أكاديميتها الصناعية.

وفي عام ١٩٣١ عاد إلى أوكرانيا وأخذ يتسلق فيها بسرعة أعلى المناصب الحزبية.. فعمل سكرتيراً لعدة لجان حزبية.. ثم انتخب عضواً في اللجنة المركزية.. ثم عضواً في مجلس السوفيت الأعلى عام ١٩٣٧ . فسكرتيراً أولاً للحزب الشيوعى الأوكرانى.. وعضواً مرشحاً للمكتب السياسى عام ١٩٣٩ وهو منصب رفيع يعتبر شاغله من قادة الاتحاد السوفيتي الفعليين.

وفي الحرب العالمية الثانية تولى خروتشوف نقل الصناعات السوفيتية من أوكرانيا نحو الشرق إنقاذاً لها من الاجتياح الألماني.. ثم عمل في المجالس الحربية في الجبهتين الغربية والجنوبية الغربية.. وشارك في تنظيم حرب الأنصار خلف الخطوط الألمانية.. وساهم كمفوض سياسى في الجيش في الدفاع عن ستالينجراد.. وفى عام ١٩٤٣ مُنح رتبة فريق.. وعندما حرر السوفيت كييف في نوفمبر ١٩٤٣ عاد إلى العمل كسكرتير أول للحزب الشيوعى الأوكرانى.. وفي ديسمبر ١٩٤٩ انتقل خروتشوف إلى موسكو حيث أصبح أحد سكرتيرى اللجنة المركزية للحزب.. واكتسب سمعة طيبة في مجال السياسة الزراعية.

وفي أكتوبر ١٩٥٢ وفي المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعى السوفيتي.. انتُخب عضواً في المجلس الرئاسي للجنة المركزية ولأمانة سر اللجان..

خروتشوف رئيساً

وفي السنوات التي تولى فيها خروتشوف زعامة الحزب والحكومة تصاعد النزاع السوفيتى – الصينى بشكل غير مسبوق.. أما معركته الكبرى فكانت في مواجهة الولايات المتحدة فيما يعرف بأزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢ واتخذت طابعاً يهدد بنشوب حرب عالمية ثالثة.. لأنها أوصلت البلدين بالفعل إلى حافة الحرب.. إلا أن خروتشوف تراجع وسحب الصواريخ السوفيتية من كوبا مقابل تعهد الولايات المتحدة بعدم غزو الجزيرة.

خروتشوف والعالم الثالث

انتهج خروتشوف إزاء بلدان العالم الثالث وبخاصة الدول العربية سياسة انفتاح وتفهم وتأييد.. فاتخذ موقف حاسم من العدوان الثلاثى على مصر.. وقدم المساعدات لبناء السد العالي فضلاً عن مئات المشروعات الصناعية.. وكسر احتكار صناعة السلاح في المنطقة العربية (سوريا ومصر).

على صعيد التنمية الداخلية أنجز خروتشوف الكثير.. ومن إنجازاته :

- إصلاح نظام التعليم..
- تدشين برنامج روسيا الطموح لغزو الفضاء الخارجى..
- تعاظم القدرة العسكرية للاتحاد السوفيتي.. وتطوير أنواع جديدة من الأسلحة الإستراتيجية..
- تنمية الاقتصاد السوفيتى..

وعلى الصعيد الخارجي شهدت فترة زعامة خروتشوف تطورات هامة منها حل الكومنفورم عام ١٩٥٣وإنشاء حلف وارسو عام ١٩٥٥ وعقد اتفاقية الحظر الجزئى للتجارب النووية ١٩٦٣ .

وجاءت التطورات التي انتهت بتنحية خروتشوف مفاجئة وسريعة.. ففى الأسبوع الأول من أكتوبر ١٩٦٤ استدعاه المكتب السياسى للحزب إلى موسكو من إجازة كان يقضيها في القرم حيث واجه اتهاماً بأنه لا يحقق فكرة العدالة الاشتراكية ولا يقيم وزناً للمسؤولية الجماعية.. وأصر أعضاء المكتب السياسى على أن يُصدر نقداً ذاتياً فلم يفعل.. وطلب منه سوسلوف أن يستقيل من جميع مناصبه ماعدا رئاسة الوزارة فرفض.

وفي ١٤ أكتوبر ١٩٦٤ نُحى خروتشوف عن جميع مناصبه.. وتُجمع الآراء على أن أبرز الأسباب وراء تنحيته هي:

- انفراده بالسلطة خلافاً لمبدأ القيادة الجماعية وردته عن اللينينية..
- فشل سياسته الزراعية وتعاظم ما كان قد دمره من البناء الستاليني..
- الإساءة إلى هيبة الاتحاد السوفيتي إبان أزمة الصواريخ الكوبية..
- الإساءة إلى منصبه الحزبى والحكومى بتصرفات مظهرية أفادت منها الدعايات الغربية.. مثل خلعه حذائه وهو جالس في مقعده على رأس الوفد السوفيتى في الدورة العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦٠ والدق به على المنصة.
- تفاقم الخلافات وتبادل الاتهامات مع قيادة الحزب الشيوعى الصينى..

واعتكف خروتشوف بعد إعفائه من مناصبه في دار ريفية (داتشا) قدمتها إليه الحكومة السوفيتية حتى توفى في ١١ سبتمبر ١٩٧١.

■ **ماو تسى تونج الحليف.. والصديق المخلص**

ماو تسـي تونج مؤسـس الصـين الشـيوعية.. وأهم زعماءها في تاريخها الحديث.. ومفكر وكاتب له العديد من المؤلفات معظمها تدور فى إطار التنظيرات للفكر الشيوعى.

ولد في ٢٦ ديسمبر ١٨٩٣ اعتنق الشيوعية بعد دخوله جامعة بكين عام ١٩١٨ وفي يونيو ١٩٢١ أصبح واحداً من الإثني عشر الذين أسسوا الحزب الشيوعي في شنغهاي.. وترقى فيه ببطء حتى أصبح زعيمه في ١٩٣٧ واعتمد ماو على الفلاحين.. موجهاً كل تركيزه إلى التنمية الزراعية.

وعمل على تطوير مفهوم جديد للشـيوعية سُـمّي «بالماوية» وكان مزيجاً من شـيوعية لينين وماركس.. وعمل على التحالف مع الاتحاد السـوفيتي في فترة حكم سـتالين.. وكان من أخلص الحلفاء بالنسبة إليه.

وبعد رحلة هروب طويلة اسـتمرت عامين أصـبح ماو القائد الوحيد في الصـين وفي ١٩٤٩ عندما كان في السـادسـة والخمسـين تمكن من تحقيق ذلك في وقتٍ كانت فيه بلاده قد أنهكتها الصـراعات والحروب.. وأصـبحت في حالٍ شـديد من الفقر والتخلف والجهل.. اسـتخدم ماو أسـاليب عنيفة ليحكم قبضة الحزب على السلطة في الصين فقتل العديد من أعداء الثورة.

كما أخذ ماو على عاتقه تمدن الصـين وتحويلها إلى أمة عصـرية قوية.. فبدأ بالعناية بالتعليم.. والتصنيع.. والصحة.. ثم حول النظام الاقتصادى من رأسمالية إلى اشتراكية.. وسيطر على كل أجهزة الدولة.. وفى ١٩٥٨ بدأ مشروعه الأهم وكان يرتكز على الصناعات الصغيرة في الحقول والقرى في الريف.. حيث أجبر الملايين من الفلاحين والعمال والمدنيين على العمل في هذا البرنامج الصـناعي بمعدل سـريع لتحقيق نتائج كبيرة.. ولكن لم يسـتطع الشـعب أن يواكب السـرعة المطلوبة فانهار المشروع.. مخلفاً خسائر ضخمة تخطتها الصين بعد سنتين.

في أواخر ١٩٥٠ أرسل ماو قوة عسكرية ضخمة من المتطوعين إلى شمال كوريا لمحاربة الجيش الأمريكي تحت قيادة الجنرال دوجلاس ماك آرثر هازماً إياه.. مما جعل الجيش الأمريكي المهزوم يتقهقر إلى كوريا الجنوبية.

وفي النهاية استطاع ماو أن يختبر قنبلة بلاده الذرية الأولى في ١٩٦٤ ثم القنبلة الهيدروجينية بعدها بفترة وجيزة.. وحدث ذلك بشكل أسرع مما توقعت كلٌ من موسكو وواشنطن.

وفي أواخر الخمسينات بعد وفاة ستالين ساءت العلاقات بين الصين والكرملين.. وزادت حدتها بعد أن قررت موسـكو التعايش السـلمى مع الولايات المتحدة.. وهاجمهم ماو معلناً أنه يخدم بإخلاص فكر لينين الماركسى الذي يدعو إلى تدمير الرأسماليين.. ومنهج ستالين التطبيقي.

ويعتبر تاريخياً ماو تسى تونج من أهم التابعين والمؤمنين بالتجربة الستالينية.. ويتضح هذا لنا جلياً في نص المقال التالي الذى كتبه ماو ونُشِرَ عام ١٩٥٣ بعد الإعلان عن وفاة ستالين..

ماوتسى تونج : إنه أكبر عقلية في العصر الحديث[٦٠]

وفي إحدى خطبه قال ماوتسي عن ستالين : إن أكبر عبقرية في العصر الحاضر.. وأعظم مرشد للحركة الشيوعية الأممية.. رفيق النضال للينين الخالد.. الرفيق جوزيف فيساريونوفيتش ستالين.. الذى قال وداعاً وإلى الأبد.

إن مساهمة الرفيق ستالين في عصرنا.. سواء على الصعيد النظري أم على صعيد الممارسة.. لا تقدر.. فقد كان ستالين ممثل العصر الجديد الذي ننتمي إليه.. ولقد قاد نشاطات الشعب السوفيتي.. والشعب الكادح في كافة الأقطار إلى قلب وضع العالم بأسره.. عن طريق انتصار القضية العادلة للديمقراطية الشعبية وللاشتراكية في جزء كبير من العالم.. في ثلث الكرة الأرضية الذي يضم ما يزيد على ٨٠٠ مليون نسمة من السكان.

لقد طور الرفيق ستالين الماركسية – اللينينية على جميع المستويات.. بصورة تبقى ذكره دائماً.. لقد طور الرفيق ستالين بصورة خلاقة نظرية لينين حول تطور الرأسمالية.. وحول إمكانية انتصار الاشتراكية في قطر واحد من البداية.. وساهم الرفيق ستالين على نحو مبدع في نظرية الأزمة العامة للنظام الرأسمالي.. وساهم في نظرية بناء الشيوعية في الاتحاد السوفيتي.. ونظرية القوانين الاقتصادية الأساسية للرأسمالية والاشتراكية في عصرنا.. ونظرية الثورة في المستعمرات وأنصاف المستعمرات.

وطور الرفيق ستالين علاوة على ذلك وبصورة خلاقة نظرية لينين حول بناء الحزب.. وجميع نظريات الرفيق ستالين الخلاقة هذه حققت المزيد من التقدم لوحدة عمال العالم قاطبة.. وكذلك وحدة الطبقات والشعوب المضطهدة في العالم أجمع.. لقد رفعت إلى مستوى منقطع النظير نضال وانتصارات الطبقة العاملة والناس المستغلين في العالم بأسره من أجل التحرر والسعادة.

وجميع مؤلفات الرفيق ستالين وثائق ماركسية لا ينضب لها معين.. إن مؤلفاته (أسس اللينينية) و(تاريخ الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي) وكذلك مؤلفه الكبير الأخير (المشكلات الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفيتي).. لهي موسوعات للماركسية – اللينينية.. وهي تشكل تركيب الحركة الشيوعية الأممية منذ مائة عام.. ولقد بحثنا نحن الشيوعيين الصينيين.. شأننا شأن شيوعيي سائر بلدان العالم.. في مؤلفات الرفيق ستالين العظيمة عن انتصارنا الخاص.

لقد كان ستالين.. منذ وفاة لينين.. الشخصية المركزية للحركة الشيوعية العالمية.. كنا نرص الصفوف حوله.. ونسأله النصح باستمرار.. ونستمد باستمرار القوى الفكرية من مؤلفاته.. وكان الرفيق ستالين ممتلئاً حماسة تجاه شعوب الشرق المستغلة.. هذا ما كان الشعار العظيم للرفيق ستالين قبل ثورة أكتوبر وبعدها.. والعالم أجمع يعرف أن الرفيق ستالين كان يحب بحرارة الشعب الصيني.. ويقدر أن قوة الثورة الصينية أكبر من أن تقدر.. وكان يدلل على حكمة سامية جداً بصدد مشكلات الثورة الصينية.. ولئن كان الحزب الشيوعي الصيني والشعب الصيني قد حققا منذ بضع سنوات نصراً تاريخياً.. فإنما ذلك بفضل اتباع مذهب لينين وستالين.. وتأييد الدولة السوفيتية العظيمة.. والقوى الثورية في جميع البلدان.

---

[٦٠] ذكر ذلك في كتاب «ماركسية ماو تسي تونج .. نصوص غير متداولة».. إعداد جورج طرابيشي.. دار الطليعة.. بيروت.

لقد فقدنا الآن مرشـــدنا العظيم.. وأخلص أصـــدقائنا..الرفيق ســـتالين.. إنها لكارثة مروعة.. وهذه الكارثة تسبب لنا حزناً يستحيل وصفه بالكلمات.

ومهمتنا أن نحول حزننا إلى قوة.. وتخليداً لذكرى مرشدنا الأكبر ستالين.. سيعمل الحزب الشيوعي الصـيني والشـعب الصـيني من جهة أولى.. والحزب الشـيوعي السـوفيتي والشـعب السـوفيتي من جهة ثانية.. على تعزيز أواصـــر الصـــداقة العظيمة التي تجمع بينهم تحت اســم ســتالين إلى غير ما حدود في المستقبل.

إن الحزب الشـيوعي للاتحاد السوفيتي حزب أسسـه شـخصـيًا لينين وستالين.. الحزب الأكثر تقدمًا والأكثر تمرسًـا والأفضــل تكونًا في العالم من وجهة النظر الأيديولوجية.. ولقد كان هذا الحزب قدوتنا في الماضـــي وفي الحاضــر.. وسـيكون أيضًـا قدوتنا في المســتقبل.. وإننا لعلى قناعة تامة بأن اللجنة المركزية للحزب الشـيوعي السـوفيتي.. وعلى رأسـها الرفيق مالنكوف.. والحكومة السـوفيتية قادرتان بكل تـأكيد على تحمـل مســـؤوليـة تراث رغبـات ســـتـالين الأخيرة وعلى تحقيق المزيـد من التقدم لقضية الشيوعية الكبرى.. وعلى جعلها أكبر وأعظم أيضاً.

إن الصـداقة الكبيرة بين شـعبي الصـين والاتحاد السـوفيتي غير قابلة لأن تتزعزع.. لأن صـداقتنا مبنية على أساس المبادئ الأممية الكبرى لماركس وإنجلز ولينين وستالين.

ولا ريب في أن القوة المتولدة عن هذه الصداقة لا ينضب لها معين ولا يقف في وجهها شيء.

ألا فليرتعد جميع المعتدين الإمبرياليين وجميع مجرمي الحرب أمام صداقتنا العظيمة !.

عاش مذهب ماركس وإنجلز ولينين وستالين !

وتبقى ذكرى ستالين لن تفنى !

٨ خاتمة .. ستالين بين يدي التاريخ

ماذا يعنى ستالين بالنسبة لروسيا والعالم اليوم والآن:

السؤال اليوم: ما هي الدوافع وراء حنين شرائح معينة من المجتمع الروسي لستالين وعصره..

مفاجآت

اليوم يتصدر اسم ستالين قائمة أهم شخصيات التاريخ الروسي المعاصر من قياصرة وقادة عسكريين.. وشخصيات سياسية واجتماعية بارزة.. وذلك بحسب استطلاع رأى قامت به عام ٢٠٠٩ القناة التليفزيونية «روسيّا» بالتعاون مع جامعة التاريخ الروسي التابعة لأكاديمية العلوم.. بهدف اختيار أعظم شخصية في التاريخ الروسي.. وهذا لا يعنى سوى شيء واحد وهو أن أثر ستالين في التاريخ الروسي كان أعظم وأقوى.. وأبقى أثراً من جميع من عاصروه.. أو سبقوه.. أو لحقوا به.

ضد ستالين

هناك أسئلة كثيرة تفرض نفسها بعد استعراضنا لسيرة وتجربة هذا الزعيم السوفيتي.. البعض من هذه الأسئلة أصبح أطروحات نقاشية بحتة تتكرر دوماً كلما ذُكِرَ اسم «ستالين» في حلقة نقاشية.. أو حتى رسالة أو بحثٍ علمي.. نتعرض هنا في خاتمتنا لهذا الكتاب للبعض منها.. ونبدأ بالأطروحة الأهم فيما وُجِهَ لستالين من اتهامات:

البيروقراطية الستالينية

هل عملت الستالينية على تخريب الحركة العمالية في روسيا.. مثلما كان الحال في أسبانيا سنة ١٩٣٦ حيث كانت تسعى بوضوح للعمل على مصالحها الخاصة.. خاصة أن الستالينيين الأسبان ساروا على الخط الذي رسمته لهم موسكو التي طالبتهم بتكسير الثورة وتركيز جميع القوى في الحرب الأهلية.

وكان موقف الستالينيين واضحاً جاء في كلمات ستالين نفسه عندما قال:

«ليس هناك أي شيء مهم.. في الوقت الحالي.. سوى كسب الحرب.. فبدون الانتصار في الحرب كل شيء آخر يعتبر بدون معنى.. ومن ثم فإنها ليست اللحظة المناسبة للكلام حول السير نحو الثورة.. إننا في هذه المرحلة لسنا نناضل من أجل دكتاتورية البروليتاريا.. نحن نناضل من أجل الديمقراطية البرلمانية.. وكل من يحاول تحويل الحرب الأهلية إلى ثورة اشتراكية.. يخدم مصلحة الفاشستيين وهو عملياً خائن.. حتى وإن كان دون وعي» .

***

المشكلة الثانية

حاول ستالين على صعيد السياسة الدبلوماسية الدولية أن يقدم الدليل للدول الرأسمالية «الديمقراطية» على كونه حليفاً موثوقاً به عبر تضحيته بالثورة الأسبانية.. وسنة ١٩٣٦ صرح ستالين علانية أن الاتحاد السوفيتي لم تكن له مطلقاً أية نية في نشر الثورة العمالية.. وأن أي ادعاء بذلك هو نتيجة لسوء فهم.. وهو بالطبع ما يخالف الواقع.. ولكننا نقول هنا أنها ربما كانت مجرد مناورة سياسية ليس إلا من جانب ستالين.

جرائم ستالين

يدعي القادة البيريسترويكيون[٦١] والديمقراطيون الروس أن ستالين قد أعدم ١٠٠ مليون شخص خلال حقبة الثلاثينيات.. والبعض الآخر يؤكد أنهم ٦٠ مليون شخص.. ولا شك أن هذه الأرقام غير صحيحة ومبالغ فيها بشكلٍ كبير ونحاول أن نحكم العقل فى مصداقية تلك الأرقام..

- في عام ١٩٤٠ وبحسب التقارير والإحصائيات الرسمية المعتمدة كان عدد سكان الاتحاد السوفيتي مجتمعاً نحو ١٩٤ مليون نسمة.

- وبلغة الإحصائيات الدولية المعتمدة أيضاً بلغت خسائر الشعب السوفيتي في الحرب الوطنية العظمى من ٢٧ إلى ٣٠ مليون شخص.

- فإذا خصمنا متوسط هذا الرقم وهو (٢٨,٥) مليون من إجمالي عدد السكان كان الناتج = ١٩٤ ــ ٢٨,٥= ١٦٥,٥ مليون نسمة.

- وإذا خصمنا الرقم الذى يُدعى بأن ستالين قتله (١٠٠ مليون) يصبح تعداد الشعب السوفيتي الباقي بعد الحرب العالمية الثانية = ٦٥,٥ مليون.. فهل يستطيع شعب أن يتكاثر.. ويتضاعف عدده خلال ١٤ عاماً إلى ثلاثة أضعاف هذا الرقم؟

- والمفارقة أن تعداد سكان الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٥٩ كان نحو (٢٠٨) مليون نسمة بحسب الإحصائيات المعلنة..

- والقول الفصل هو أن ضحايا الحرب.. ومذابح ستالين كان المفروض فيهم أن غالبيتهم من الشباب.. والرجال وقود الحروب.. فتية الحزب.. إذن ما تبقى كان من الشيوخ والعجائز.. والنساء.. والأطفال.. فكيف لهؤلاء تلك المقدرة الخارقة على مضاعفة تعداد الشعب السوفيتي مرة على الأقل كل خمسة أعوام.

وهنا لابد أن يتدخل المؤرخون في روسيا.. للبحث في أوراق الأرشيف الرسمي للدولة لتحديد الأرقام الصحيحة حتى يُسدل الستار على هذه الجزئية من سيرة ستالين.



(٦١) نسبةً إلى بروسترويكا ميخائيل جورباتشوف آخر رؤساء الاتحاد السوفيتي.

٩.اللوبي اليهودي وكراهيته لستالين

اللوبي اليهودي الروسي والمرتبط ارتباطاً وثيقاً باللوبي اليهودي العالمي وخاصة باللوبي اليهودي الأمريكي.. كان ولا يزال وراء تسعير واستمرار الحملة الإعلامية الهيستيرية ضد ستالين ومنجزاته حتى بعد وفاته بعشرات السنين.

كما استحوذ اللوبي اليهودي الروسي على حصة الأسد من ثروة الشعب الروسي.. فاللوبي اليهودي الروسي يمتلك في يده المال والإعلام والسلطة ويتم استخدام هذه العناصر الثلاثة لخدمة أهدافه السياسية والاقتصادية والأيديولوجية واتحد مع هذا اللوبي في حملته الهستيرية (قادة البيروسترويكا – الإصلاح الاقتصادي) ومن التحريفيين والانتهازيين في داخل المجتمع السوفيتي الروسي وأن الحملة الإعلامية واستمراريتها تحمل طابعاً أيديولوجيا وسياسياً بالدرجة الأولى ونعتقد أن السبب يعود إلى أن ستالين كان له موقفاً حاسماً من هذه العناصر لا يعرف المساومة ولا المهادنة لأن ستالين كان يدرك وبشكل جيد مخاطر ودور العناصر غير الروسية وتأثيرها على الحزب والسلطة السوفيتية والاشتراكية ومنجزاتها بهدف القضاء على كل ذلك.

لذا لم يستطع اللوبي اليهودي الروسي وقوى الثورة المضادة و(قادة البيروسترويكا- الإصلاح الاقتصادي) من أن يوجهوا تُهماً إلى ستالين مثل (تهمة الخيانة أو تهمة الفساد المالي أو تهمة تهريب الأموال) بل يركزون على نقطة واحدة وباستمرار ويتم إعادتها وبأشكال مختلفة يومياً ألا وهي (حملة الاضطهاد السياسي) خلال فترة الثلاثينيات من القرن الماضي.

ولو لم يكن ستالين حازماً ومبدئياً ومدركاً لكل الأبعاد والمخاطر والمشاكل التي واجهت الحزب والسلطة السوفيتية.. وما هي القوى التي كانت تقف وراء هذه الأخطار على الصعيدين المحلي والعالمي لما استطاع أن يحقق النصر على قوى الثورة المضادة في الداخل.. ولما استطاع أن يلحق الهزيمة بالفاشية الألمانية وليدة النظام الرأسمالي ولما استطاع أن يعيد إعمار البلاد ويحقق المنجزات الكبرى ولما استطاع أن يخلق دولة عظمى سياسياً واقتصادياً وعسكرياً والتي شكلت قطباً رئيسياً عالمياً والتي ساعدت على تحقيق الاستقرار والتوازن في العالم والذي دام أكثر من ٥٠ سنة.

***

ومن الأشياء الواجب لفت الأنظار إليها فى نهاية رحلتنا مع الكتاب هو أهم الخدمات الكبرى التي قدمها ستالين للشعب السوفيتي والحزب الشيوعي السوفيتي لشعوب وحكومات العالم قاطبة بما فيها البلدان الرأسمالية إذ تم القضاء على النازية الألمانية بقيادة هتلر وأن الجيش الأحمر بقيادة ستالين قد حرر بلاده وبلدان أوربا الشرقية وأكثر من نصف بلدان أوروبا من أخطر الأوبئة وهو الطاعون الأسود في القرن العشرين المتمثل بالفاشية الهتلرية وكان ستالين يؤكد دائماً (أيها الرفاق إن قضيتنا عادلة وسوف يتم سحق العدو والنصر سيكون حليفنا) ومقولته الشهيرة (لا خطوة إلى الوراء) تعني إما تحقيق النصر والحفاظ على النظام الاشتراكي والسلطة السوفيتية أو الاستشهاد من أجل الاشتراكية.

قالوا عن ستالين

في عام ١٩٤٦ وصف ستالين تشرشل رئيس الوزراء البريطاني بأنه (مشعل الحروب) وبعدها بعدة سنوات.. حتى بعد وفاة ستالين.. وفي ديسمبر عام ١٩٥٩ ألقى تشرشل خطابا في مجلس اللوردات البريطاني بمناسبة الذكرى الـ٨٠ لميلاد ستالين قال فيها:

(إنها لسعادة كبيرة لروسيا وفي ظروفها الصعبة والقاهرة أن يظهر لها قائد يقودها ويتمتع بالذكاء والدهاء.. قائد لا يعرف التردد.. قائد حازم مثل ستالين.. إنه شخصية بارزة.. وكأن صلابته التي تكونت في حياته قد انعكست كليا في قيادته للسلطة.. وهذه الصلابة تلاءمت والمرحلة التاريخية.. لقد كان ستالين إنسانياً وذا طاقة غير عادية.. ويملك سعة الاطلاع والعلم والتبحر.. كما يملك عزيمة لا تنثنى إنه قائد يملك المفاجآت قائداً حاسماً لا يعرف الهوادة سواء في القضايا الهامة أو في الحديث.. وحتى أنا (المقصود تشرشل) الذي تربيت على نمط وسلوك البرلمان البريطاني لم أكن لأستطيع أن أواجهه.. إن ستالين كان يمتلك المنطق والفطنة ولم يلازمه الذعر.. وكان صادقاً ومستحيلاً التفوق عليه.. وكان دائماً يجد الحلول خلال الأوقات الصعبة والحرجة للقضايا التي لا مخرج لها.. سواء كانت في الأوقات التراجيدية أو في أيام الاحتفالات والمناسبات.. وأنه كان متماسك ولا يذعن أو يستسلم للأوهام وكان شخصاً غير عادي.. صاحب شخصية قوية.. وضع تحت قيادته إمبراطورية عظمى.. واستطاع أن يسحق خصمه على أيدي خصومه الآخرين وأرغمنا نحن الذي أطلق ستالين علينا بالإمبرياليين أن نحارب بعضنا البعض.. إن ستالين كان قائداً عظيماً.. تولى قيادة روسيا وحَولها من بلدان المجرات الخشبية إلى دولة عظمى تملك السلاح الذري.. ومهما حاولنا أن نتحدث عن عظمة ستالين فإن التاريخ والشعوب لن تنسى مثل هذا القائد الموهوب).

روزفلت

وهناك رسالة سرية وشخصية هامة أرسل بها ستالين إلى روزفلت جاء فيها:

« في ٤ يونيو وصلتني رسالتك حول بعض الشؤون الاستراتيجية التي تبنيتماها أنت والسيد تشرتشل.. أشكرك على المعلومات الواردة فيها.

يبدو لي من اتصالاتكم أن قراراتكم جاءت معاكسة لما كنتما.. أنت وتشرتشل.. قد قررتما في وقت مبكر من هذا العام فيما يتعلق بموعد فتح الجبهة الثانية في أوروبا الغربية.. أنت دون شك تتذكر رسالتكما المشتركة في ٢٦ يناير المصاغة من قبلكما.. أنت والسيد تشرتشل.. والتي تضمنت قراركما آنذاك بإزاحة قسم من القوات الأرضية والجوية الألمانية عن الجبهة الروسية وصولاً إلى تركيع ألمانيا في عام ١٩٤٣.

وفي ١٢ فبراير أيضاً أبلغنا السيد تشرشل وبالنيابة عنك أيضاً عن تحديد الوقت للعملية الأنجلو أمريكية في تونس وشواطئ المتوسط وكذلك في الشواطئ الغربية لأوروبا.. وقال بلاغه بأن بريطانيا العظمى والولايات المتحدة هما في استعداد محموم لعبور القنال في أغسطس ١٩٤٣ وأنه إذا ما حدث أي تأخير للعملية بسبب الأحوال الجوية أو أي سبب آخر فذلك سيؤدي بكما إلى تنفيذها بقوى أعظم في سبتمبر ١٩٤٣.

اليوم وفي مايو ١٩٤٣ تقرران.. أنت والسيد تشرشل.. تأجيل الغزو الأنجلو أمريكي لأوروبا الغربية إلى ربيع ١٩٤٤وبكلمة.. فإن افتتاح الجبهة الثانية في أوروبا الغربية الذي كان قد تم تأجيله سابقاً من عام ١٩٤٢ إلى عام ١٩٤٣ قد تم تأجيله مرة أخرى إلى ربيع ١٩٤٤.

قراركم هذا يخلق صعوبات للاتحاد السوفيتي ليست في الحسبان.. الاتحاد السوفيتي الذي استنزف موارده خلال السنتين الماضيتين وهو يقاتل وحيداً القوى الرئيسية لألمانيا والدول التابعة لها.. جيوشه لا تقوم بالدفاع عن وطنها فقط بل وعن حلفائها أيضـــاً.. وتؤدي وظيفتها وحيدة وبيد واحدة بوجه عدو ما زال يمتلك قوى هائلة.

هل علي أن أتحدث عن الانطباع الســيئ للغاية الذي يعكســه قراركما هذا القاضــي بتأجيل موعد الجبهة الثانية وحجب المساعدة الفعلية المنتظرة من الجيوشالأنجلو أمريكية.. حجبها عن جيشنا الذي قدم تضحيات هائلة.. ما الذي يعكسه في الاتحاد السوفيتي سواء كان ذلك على الأوساط الشعبية أم على القوات المسلحة.

أما فيما يتعلق بالحكومة السوفيتية فهي لن تتقبل مثل هذا القرار خاصة وأنه اتخذ بغير مشاركتها وحتى دون محاولة من طرفكم لمشاركتها في اتخاذ قرار له انعكاسات خطيرة على مجريات الحرب»
.

عموماً هنا لابد أن نتوقف قليلاً لنجيب عن سؤال يتعلق بطبيعة العلاقة بين ستالين وتشرشل خلال تلك الحرب.. فخلال رسائله الكثيرة لستالين ظل تشرشل يمجد ما تقوم به الجيوش الروسية في الحرب ويعترف بالفرق الشاسع بين قوى روسيا وقوى بريطانيا الحربية.

وكان يكرر تلك المقارنة ليؤكد عجز بريطانيا عن فتح جبهة في غرب أوروبا ولا يتردد في أن يدلل على هذا بالتذكير بهزيمة جيوش بريطانيا أمام الجيش الألماني في دنكرك في فرنسا حيث كانت خسائر بريطانيا حوالي ٤ آلاف جندي.

تقسيم العمل

كانت النتائج المباشــرة لتقســيم العمل في الحرب العالية الثانية الذي فرضــته بريطانيا وأمريكا لمحاربة إيطاليا والاتحاد الســوفيتي لمحاربة ألمانيا ومعها فنلندة ورومانيا وبلغاريا وهنغاريا.. كانت النتائج أن تكبد الاتحاد السوفيتي وحده خسارة ملايين الجنود أما بريطانيا فلم تخسر أكثر من ٤٠٠ ألف جندي معظمهم من مســتعمراتها.. ففي حربها في شــمال أفريقيا وفي العلمين.. وهي أهم معركة خاضتها بريطانيا.. لم تصل خسائرها إلى عشرة آلاف جندي.. وتكبدت الجيوش السوفيتية في المقابل خسارة ٥٠٠ ألف جندي في كل معركة من معاركها الرئيسـية.. موسكو.. ستالينجراد.. كورسك.. تحرير وارسو.. واحتلال برلين.

خطة تشرشل لاستنزاف الاتحاد السوفيتي

لقد ثبت بعد عشر سنوات فقط أن خطط تشرتشل غير المعلنة في استنزاف الاتحاد السوفيتي كان لها الدور الحاسم في انهيار مشروع لينين الشيوعي.. وترتب على الاتحاد السوفيتي إذّاك أن يعسكر كل طاقاته كي يهزم النازية فكان أن انتهت الحرب والمنظمة العسكرية في الاتحاد السوفيتي أقوى من الحزب الشيوعي فاستولت بصورة آلية على السلطة بعد رحيل ستالين بستة شهور فقط.. وأزاحت مالنكوف ونصبت مكانه رجلها الماكر خروتشوف في أكتوبر١٩٥٣.

وهكذا ومنذ ذلك التاريخ والسلطة السوفيتية في يد العسكر وليس الحزب الشيوعي.. الحقيقة التي اعترف بها خروتشوف في مذكراته بعد أن طرده العسكرفي عام ١٩٦٤ بعد أن قضوا منه وطراً.. العسكر الذين كانوا قد أتوا به في عام ١٩٥٣.

ونستون تشرتشل.. وزير الحربية البريطاني.. الذي فشل في عام ١٩١٩ أن يخنق البلشفية في مهدها.. كما كان يؤكد.. عاد لينجح في عام ١٩٥٣ لكن لسوء حظه فنجاحه لم يكن لصالح الإمبريالية البريطانية فالرأسمالية انهارت في سبعينيات القرن الماضي وباتت الإمبريالية في مزبلة التاريخ وشعوب بريطانيا تأكل خبزها اليوم بمساعدات ضخمة من الولايات المتحدة ومن الاتحاد الأوروبي ومن النفط الذي فاض عليها من البحر.

***

ويقول الرئيس الفرنسي شارل ديجول:

(لقد تمتع ستالين بهيبة ونفوذ واحترام كبيرين ليس في داخل روسيا فقط.. بل حتى لدى أعدائه ونجاحاته أكبر من خسائره).

من أقوال ستالين

- إن إمكانية استخدام الأسلوب السلمي والمبدئي لمعالجة القضايا المختلفة أصبح غير ممكن.. مع وجود نشاط (الطابور الخامس) [٦٢] الذى أصبح يشكل خطراً جدياً وكبيراً على السلطة)..
- الديمقراطية الاشتراكية وتطبيقاتها من أساسيات الحزب والمجتمع..
- أخطر شيء في هذا الصراع هو الخوف والتراجع والاستسلام والارتعاش أمام العدو.
- أن حزبنا وشــعبنا دائماً اليوم وفي المســتقبل يحتاج إلى المســاندة والتضــامن من الأحزاب الشيوعية الشقيقة.. وكذلك من قبل شعوب العالم.
- كما لفت انتباه أعضــاء المؤتمر على التغيرات الســريعة التي يقوم بها الإمبرياليون ســواء في تكتيكاتهم أو فــي استراتيجيتهم.
- إن الدول الإمبريالية بزعامة أمريكا وبريطانيا يسعــون إلى تطويق رأسمالي للاتحاد السوفيتي في المســتقبل.. وهو نوع من أنواع التدخل غير المباشــر في الشــؤون الداخلية للدول.. وهو يشــكل خطورة أكثر من الحرب العسكرية.
- قوات حلف الناتو اليوم متواجدة فــي جمهوريات أسيا الوسطى وجورجيا.. وانضمام مهوريات البلطيق ودول أوروبا الشــرقية إلى حلف الناتو تم.. ويتم ذلك تحت غطاء ما يســمى بمكافحة الإرهاب الدولي.. ولا يستبعد من انضمام بقية دول الرابطة المستقلة لهذا الحلف العدواني والوحشي.
- بعد انتهاء الحرب العالمية قال ستالين :
- أن هذه الحرب خطفت مـــن عندنا أفضل وأحسن المواطنين.. وأن هؤلاء الأبطال قد ألحقوا الهزيمة الكبرى بالفاشية الألمانية.. وحرروا دولتهم العظمى من الألمان الفاشيين.
- لابد أولاً أن يتم التفكير بمصير البلاد.. ثم التفكير بالمصير الخاص ثانياً..
- ليس لدينا رغبة في القضاء على ألمانيا.. وهذا أمر شبه مستحيل كما هو أمراً شبه مستحيل أن يتم القضاء علــى الاتحاد السوفيتي ولكــن يجب أن يتم القضاء على الحكومة الهتلرية ــ الفاشية وهذا ممكن وضروري.. كما يجب أن يتم القضاء على الجيش الهتلري وقيادته).
- إن قضيتنا عادلة والنصر سيكون حليفنا.
- كلما تتقدم بلادنا في السير نحو الاشتراكية أكثر فأكثر.. فإن مقاومة الخصوم ستتعاظم وتشتد.

***

ويبقى السؤال الأهم والذى نطرحه نحن :

هل نجحت التجربة الستالينية فيما سميناه «بحث ستالين عن مدينته الفاضلة».. وإلى أى مدى نجح ستالين في تطبيق تجربته؟

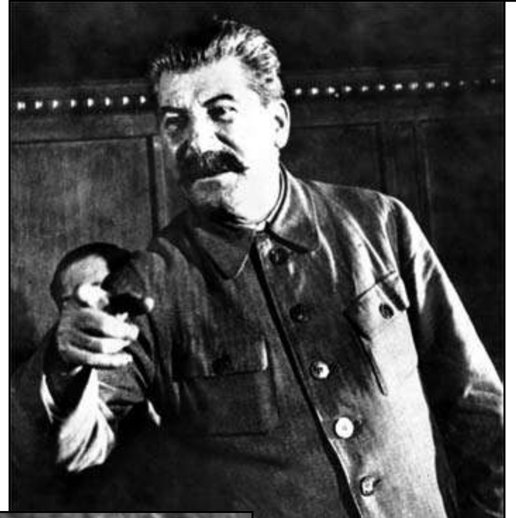
سؤال ما زالت الإجابة الشافية والوافية عنه في رحم التاريخ لم تخرج للنور بعد.

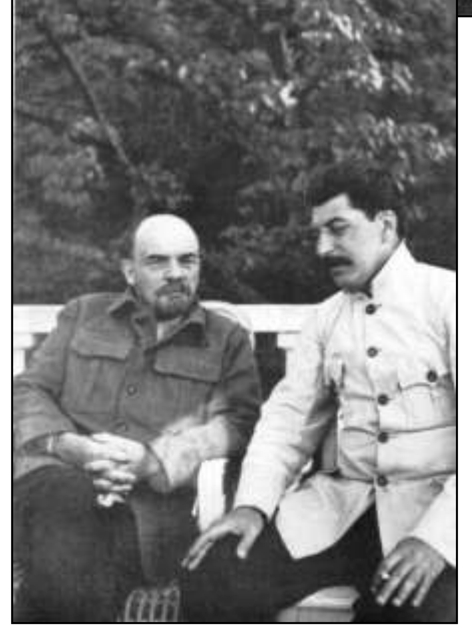
---

(٦٢) الطابور الخامس المقصود به جواسيس الأعداء داخل الدولة .

ملف صور







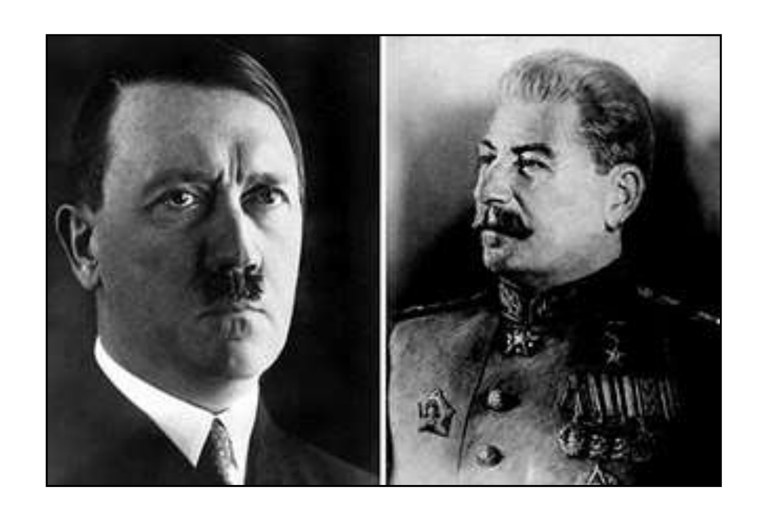
لينين وتلميذه ستالين

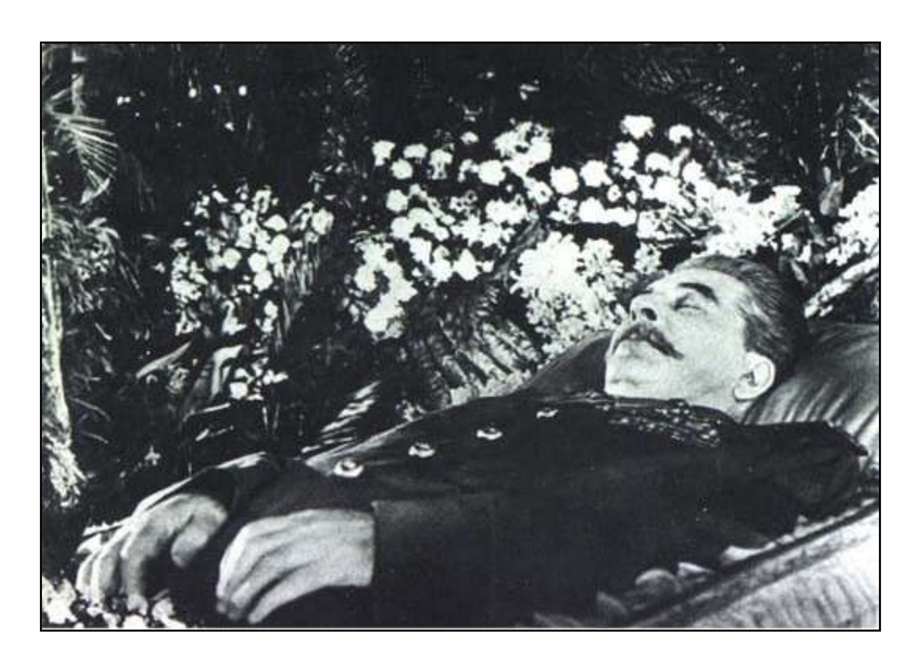






مع ابنته





فهرس الموضوعات

